

وامعتصماه

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية



رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

وامعتصماه

المعتصمُ بنُ هارونَ الرشيدِ ثامن الخلفاءِ العباسيي، أصبح خليفةً يومَ وفاةِ أخيه المأمون في سنة ٢١٨ هجرية.

وكلمةُ وامعتصماهُ، جاءت صرخةً تثيرُ في النفس العربية المسلمةِ، والضمير العربيِّ الشيءَ الكثير.

صرخة دوَّت من امرأةٍ عربية وصلتْ إلى مسامعِ أمير المومنين المعتصمِ ابن هارونَ الرشيد، فزلزلت كيانهُ، وكانت سببًا مباشرًا لنصرٍ عظيم تحقَّقَ على يد المسلمين.

وأكثر ما وجدناه مُهُمًا في هذه القصة العظيمة هو النخوة العربية والإسلامية والشهامة التي تحلَّى بها أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين حينما استنجدتْ به الرعيَّة من ظلْمٍ وقع على فردٍ من أفرادها.

ومن أعمال المعتصم الجليلةِ أنه أعدَّ جيشًا قويًا، وبنى له مدينةً جميلةً يسكنها جندهُ، هذه المدينة التي بناها عام ٢٢١ هجرية هي مدينةُ سامرَّاء التي عاشت ما يقرب من الستين عامًا.

وقد بُنيت مدينةُ «سامرَّاء» شرقي نهر دجلةَ على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد، وتبعدُ عنها ستين ميلاً من الشمال،

وتقع في مكانٍ طيِّب الهواءِ والتـربة، يسهل منه الوصولُ إلى بغدادَ براً ونهـراً، وشيَّد المعتـصمُ في طرفها مـسجداً جامـعًا للمسلمين، وأفـردَ سوقًا لأربابِ الحرف، ونقل إلى مـدينتة الجديدة الأشجـارَ والثمارَ وغرسَ الحدائقَ والبسـاتينَ، وشيد المتنزهاتِ وأقام المبانيَ الشاهقةَ والقـصورَ الفخمةَ التي قيل إنَّ عددها بلغ سبعةَ عشرَ قصرًا.

وأصبحت سامراءُ مدينةً عامرةً زاهرةَ، حتى سُميت «سُرَّ مَنْ رأي» وحتىُ وصِفَتْ في التاريخ بأنَّها: معشوقةُ السُّكْنى، حبـيبـة المثْوى، كـوكَبُـها يقظانُ، وجـوُّها عُريُانُ، حَـصَاها جوهرٌ، ونسيمُـها معطَّرٌ، ترابُها مسكٌ أزفـرُ، ويومها غداةٌ، وليلها سحرٌ، طعامهـا هنيء وشرابها مريءُ، تاجرُها مالكٌ، وفقيرها فاتكٌ[1].

فظللت مدينةُ سامراءَ في أوجِ عظمتها، أيام المعتصم.

وذات يومٍ كان المعتصمُ جالسًا بـقصرِه في مدينته الجديدة سامراءَ، وفيما هو جالسٌ في بهو قصرِه، وسط وزرائه وقادةِ جيوشهِ وحاشيته دخل عليه رجلٌ، فلما وقف بين يديه قال: يا أميـرَ المؤمنين؛ كنتُ بِعَمُّورِيَّةَ إحدى بلاد الروم، فـوجدت امرأةً من أحـسن النساء سيرةً، وأكـرمهن حسبًـا، واطهرهن

(١) هذا الوصف لابن المعتز.

شرفًا وسيرةً، وجدتها بين يدي جنديٍّ من جنود الرومِ، فلما نظرت في وجهه، لطمها لطمةَ هائلة على وجهها، فصرخت تنادي باسمك: وامعتصماهُ، وامعتصماهُ، وكلّما لطمها نادتْ مستجيرةً: وامعتصماه، فقال لها الجنديُّ الروميُّ الغازي ساخرًا، وما يقدر عليه المعتصم؟ يجيء على حصانٍ أَبْلَقَ وينصرُكِ! وزاد في ضربها.

فقال المعتصمُ وقد هزه حديثُ الرجلِ: وفي أي جهةٍ عموريَّةُ؟

فأشار الرجلُ إلى وجهتها، فنظر المعتصمُ إلى جهة عموريَّة وقال: لبيك أيتها المرأةُ، لبيك، هذا المعتصمُ بالله أجابك، تُرى ما ذا فعل المعتصم لكي يجيبها، ويردَّ لها الاعتبار والشرفَ، وكيف تحركتْ في دمهِ وجوانحه مروءةُ المسلم وشهامةُ الحاكمِ الغيورِ على شرف رعيته المستجيبِ لنجدتهم ونصرتهم؟؟

هذه اسئلة سنجيب عليها بمتابعةِ ما فعل المعتصم.

استجاب المعتصمُ لصرخة السيدة العربيةِ التي استجارتْ به في حادثة فردية، لقد أعدَّ لها جيشًا بلغ عشراتِ الألوف، بل يزيدُ على المئةِ ألف، لكي يُجيرَ صاحبتَه من الظلمِ، ويدفع عن شرفها الدنسَ، ويثبت للتاريخ والعالمِ أنَّ شهامةَ المسلمِ هي جزءٌ من كيانه، وهي ماردٌ جبارٌ يعيش في داخلهِ ما إنْ يتفجرْ حتى يجعلَ الأحداثَ كالبراكين الهادرة.

وقبل أن نتابع حركةَ المعتـصم وتحرُّكَهُ نعود إلى الأسبابِ التي سبقتْ صرخةِ السيدةِ العربيةِ الأصيلةِ، فنجدَ أنفسنا في قصرِ عدوِّ الإسلامِ «بابك» الذي ارتدَّ عن دينِ الإسلامِ، بعد أن كان مسلمًا، فـقد جلس «بابك» يـحدِّث نفسـهُ، ولكنه التفت إلى أحد أعوانه قائلاً: إنَّ قواتِ المعتصـم قد ضيَّقتْ الخناقَ عليَّ، فماذا أفعلُ؟

فقال صاحبهُ: أيها الأمـيرُ بابك إن كثرة جنودِ المعـتصم بقيادة «الأفشين» قـائده التركيِّ تدلُّ على أنَّه ألقى بكل ثقله في اتجاهك. ويبدو أن الإفـشين يرى معركته مـعك وكأنها مـستـقبلهُ العـسكريُّ الذي سـيؤهلهُ لـقيـادة بلاد المسلمين والعرب، وجعلِ أمـراءهـم كالمعتصم وغيره مـجرَّدَ رمز باقٍ لخلافةٍ عباسية عَفَّاها الزمنُ.

فقال بابك على الفور: لقد اشتراهم المعتصمُ من سوق الرقيق من بلاد ما وراء النهرِ، واعجبـه هندامُهم وشكلُهم الجميلُ، وها هم أُولاءِ قد أصبحوا وزراء وقادة، ويوشكون أن ينقضوا على ملكه!!

كان الجوُّ لطيـفًا، فالقصر مُـشَيَّدٌ على ضفـاف نهر، وقد غطت الأفقَ أغصـانُ الأشجار العاليةِ، وجـعلتِ الهواءَ ينزلقُ إلى أسفلَ فـيمرُّ على مجلس بابـكَ وأصحابه نسيـمًا معطرًا

جميلاً، وفي هـذا الجو اللطيف قطع الصمت وزيرٌ من وزراء بابك قائلاً: هذا الرُّجلُ الذي يَعُدُّ نَفْسَه أميـرًا للمؤمنين وحاكمًا لبلاد المسلمين، لم ينس تجربةَ أبيه هارون الرشيد مع البرامكة، فقد قرَّبهم الرشيدُ منه مثلما يفعل المعتصمُ الآنَ مع الأتراك.

فقال الوزير: لا تنس أنهَّم مسلمـون ويدافعون عن دينهم، فهم جمـيعًا يدٌ واحدةٌ لا فرق بين عـربيٍّ وتركيٍّ - وخلاصة الأمر أنَّهم جميعًـا أعداؤنا ويريدون القضاء عليك يا مولاي، وعلى ملكك.

فقال بابك: إنني الآن أريدُ أن أفتح جبهةَ قتالٍ جديدةً ضدَّ الأفشين وجيش المعتـصم، حتى أخفِّفَ الضغطَ عن جنودنا، أشيروا عليَّ: كيف يكونُ لنا ذلك؟

الوزير: ليس هناك غيرُه.

بابك: مَنْ هو؟

الوزير: صديقك المخلص تيوفيلُ ملكُ الروم.

بابك: ماذا يفعل صديقي تيوفيل في رأيك أيُّها الوزير؟

الوزير: نحن نعـرف المعـتـصم، إنه إذا قـضى علينا فـإنَّ شوكتَـهَ ستقوَى كـثيرًا في البلاد والأمـصار، وفي هذا خطر على بيزنطةَ نفسها بل والروم ومُلكِهم كُلِّه.

وكتب بابكُ رسالة لتيوفيلَ جاء فيها: من بابك الخرَّميِّ إلى تيوفيل ملكِ الروم: إنَّ المعتصم ملكَ العربِ قد وجَّه عساكرَهُ ومقاتليه إليك، وإن عساكره تحاصرني، فإذا أردت الخروجَ إليه فاعلم أنَّه ليس في وجهك أحدٌ يمنعكُ.

خرج تيوفيل ملك الرومِ في جيش كبير بلغ مائة ألف رجل، فيهم من الجند ما يزيد على السبعين ألفًا، وبقيتهم من الأتباع والمؤيدين، ولكنه خرج متأخرًا عن رسالة بابكَ عامين كاملين، وفي هذه الأثناء كان جيشُ المعتصم بقيادة الإفشين وغيره قد تمكَّن من دخول مدينة «البَذُّ» مركز قيادة بابك وتدميرها، وقد فرَّ بابك هربًا بعد الهزيمة الساحقةِ، فاحتفل المعتصمُ والخلافة في سامراءَ وبغداد بهذا النصرِ العظيم، وبلغت أنباءُ هذه الاحتفالات تيوفيل ملكِ الروم. فانتهز فرصة انشغال المعتصم وقياداته في سامراء بغداد، وقرر أن يكون هجومه على ثَغْرٍ مهمٍّ من ثغور الشام وهو مدينة زَبطْرَة.

هاجم تيوفيل ملكِ الرومِ مدينة زَبطْرَة، بعد أن انضم إليه اتباعُ، خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم، وكان ملك الروم قد أغدق عليهم الأموال الكثيرة ودرَّبهم على القتال ليستعين بهم في غزواته.

فلما دخل ملكُ الرومِ زَبطْرَة، قتل الرجال الذين فيها بوحشية، وسبى الذرارىَ والنساء التي فيها وأحرقها، وقد استغاثَ الناسُ في زَبطْرَة وضج المسلمونَ في منطقةِ الحدودِ والثغور، واستغاثوا جميعًا في الطرقات والمساجد، وانشد الشعراءُ قصائدَ الاستغاثة بيَّنوا فيها ما نزل في البلاد من بلاء، ليحضُّوا جيشَ المسلمين على الانتقام لما حاق بهم.

وصلت كلُّ هذه الأخبار المعتصم، فازعجته إزعاجًا شديدًا، حتى جاءه خبرُ المرأة العربية التي صاحت وصرخت بأعلى صوتها وهي أسيرة في أيدي جند الروم وقالت: وامعتصماه.

فاجابها وهو جالس في سريرهِ: لبيك، لبيك، ونهض لمعتصمُ من ساعته، وصاح في قصره: النفيرَ . . . النفير . . . وقيل أنَّ المرأةَ العربيةَ التي صرخت لطمها رومي من جنود الروم مما أثار في نفس الخليفة المعتصم الغضبَ الشديدَ، فوقف ثائرًا، وخرج من فَوْرِه نافرًا، وعليه دُرَّاعة، وهي ثيابٌ من الصوفِ بيضاء اللون، وقد تعَّمم بعمامةِ المحاربين والغزاة.

وفي مساء هذا اليوم لم يهدأ المعتصم في قصرهِ، فبالإضافة إلى ما بلغه من أنباء عن معارك زَبطْرَة وممارسات الروم الغادرة في أهلها نساءً ورجالاً، بالإضافة إلى ذلك فقد

أصاب الرجلَ أرقٌ شديدٌ من تفاصيل هذه المعارك، وكان أشدَّ ما يؤذيه ما بلغه أن هناك المئات من النساءِ العربيّات الشريفات، قد أسرن على يد جند الروم، وكانت صرخةُ إحداهُنَّ كأنها تتردَّدُ في أرجاء قصرِه فلا تجعل الهدوءَ يخيمُ على قصره كالعادةِ، بل كانت صرخاتها وصرخات غيرها تدوِّي في آذان المعتصم فلا تُصيبها بالصمم فحسبُ، بل تجعل الدَّمَ يغلي في العروق، إذ كان هذا الدَّمُ عربيّاً إسلاميًا أصيلاً، يدفع عن أهله الضرَّ، ويعرف أن من مات دون عرضِهِ فهو شهيدُ.

وفي أيام المعتصم كثُرَ المنجمونَ الذين ينظرون في النجوم، ويحدِّدونَ مواقيتها وسيرها، ويوُهمون الناسِ أنهم بذلك يستطلعون أحوال الكون وأحداثه، وشاعت تنبُّؤاتهم التي تقول: إنَّ المعتصم لابدَّ أنَّه سيخسر هذه المعركة، هكذا يقولُ لهم الطالعُ والنجمُ، فلما طال مقامه عليها جمع المنجمين **فقالوا له:** إنَّا نري أنَّك ما تفتحها إلاَّ في زمان نُضج العنبِ والتينِ، فشقَّ عليه ذلك واغتَّم، وخرج ليلةً مع بعض حَشَمِهِ متجَسسًا في العسكرِ يسمع ما يقولُ الناس، فمرَّ بخيمةِ حدَّادٍ يضرب نعالِ الخيلِ، وبين يديه غلام أقرع قبيحُ الصورة، وهو يضرب على السِّندان، **ويقول:** في رأس

المعتصم! فقال له معلمُهُ: اتركنا من هذا، مالك وللمعتصم! فقال: ما عنده تدبرٌ، له كذا وكذا مع قوَّته ولا يفتحها لو أعطاني الأمر ما بات غدًا إلا فيها. فتعجب المعتصم مما سمع، وترك بعض رجاله حولهُ، وانصرف إلى خِبائه، فلما أصبحَ الصُّبحُ جاء بالغلامِ، فقال المعتصمُ: لماذا قلتَ هذا الذي سمعته بالأمس؟ فقال الغلامُ: الذي سمعتهُ حقٌّ ولو ولَّيْتني الحربَ فإنِّي أرجو أن يفتحَ الله عليك. فقال: قد وليتك، وخلع عليه وقدَّمه على الحرب.

وشاعت تنبؤات المنجمين التي تقول: إن المعتصم لابدَّ أنَّه سيخسر هذه المعركةَ، هكذا يقول لهم الطالع والنجم، وإنَّ علمَ الكواكبِ والتنجيم يقول لهم: إنَّ هذا الوقتَ هو وقت انتصار الروم، ولا دلائل عندهم تقول إنَّ العربَ وجيشَ المعتصمُ القويَّ سينتصر في هذه المعركة ونسوا أنَّه الدفاع عن الشرف والأوطان والدِّار حقٌّ مشروعٌ، أقرته كلُّ الديانات بما فيها ديننا الإسلامي الحنيف.

قضي المعتصمُ يومَه كلَّهُ يدور على قياداتِه وجنودِه ويسأل عن قوَّة الجيشِ وما نقص منها من سلاحٍ وعتادٍ، وما خطر لهم في فكرهم عن خطة الخروج إلى جند الروم لاستعادة زَبطْرَة وضرب الرومِ في عُقْرِ دارهم، واسترجاع الحقِّ العربيِّ الأسير.

واقتنع المعتصم بضرورة إكمال عُدَّته وعتاده، وتعبئة جيشه على أكمل ما تكون التعبئة من سلاح ودروع وسهام ومؤن وذخيرة وخيل تحمل الجنودَ ودوابٍّ أُخرى تحمل عتادهم ومتاعَهم.

المسير إلى عمورِيَّة:

استعد المعتصم، وصاح في قصره النفير النفير، وخرجَ الجيشُ العربيُّ الإسلاميُّ بقيادةِ أمير المؤمنين المعتصمِ إلى عموريَّه بعد أن قسَّمَ الجيشَ إلى ثلاثة جيوشٍ، جيش بقيادة «اشناس» وهو من قادتهِ الكبارِ، وهو على المسيرة، وجيش بقيادة المعتصم نفسهِ وهو القلبُ، وثالث بقيادة أحد قادته الكبارِ واسمهُ الإفشين في الميمنة، وبين كل جيش وجيش مسافة فَرْسَخَيْنِ، وأمر كُلَّ جيشٍ منهم أن يكونَ له ميمنةٌ وميسرة.

وبدأت طلائعُ الجيوش تصل إلى عموريَّة، وكان أوَّلَ من وصل إليها جيشُ اشناس حيث وصل في ضحى يوم الخميس، فدار حولها دورةً كاملةً لإرهاب من فيها واستطلاع ما حولها، ثم نزل اشناسُ على بعد ميلين منها بمكان فيه ماءٌ ومرعى ترعى فيه الإبلُ والدواب، وبات أشناسُ لَيْلَتَهُ هناك ومع طلوع الشمس وصل المعتصمُ، ثم دار دورةً أيضًا حول

عمـورِّيَّةَ، ثم جاء الأفـشين في اليوم الثـالث. ولما تكاملت القوات قسمها المعـتصمُ على دوران المدنية - مدينة عمورية - فجعل إلى كلِ قائد من قادته أبـراجًا من أبراجها على حسب عددِ قـوَّاته، وقسَّمَ الجـميع على الأبـراج، فصار لكـلٍّ قائد منهم ما بين البرجينِ إلى العشرينَ بُرجًا، وتحصَّن أهلُ عمويَّةً وتحرَّزوا، والأبراج هي أماكنُ حصينةٌ على سورِ عمورية يقف فيها جنودُ الحراسة، فإن سقطت سقطت عمورية كلها.

وبتقسـيم المعتصمِ جيوشـهُ على الأبراج استطاع أن يضع المدينة كلَّها تحت يده.

وكان أكثـر ما شغل المعتـصمَ حين حاصرَ عمـورية سعةُ الخندق واتساعه وطولُ سورها، وكان قد اصطحب معه غنمًا كثيرةَ لتكونَ طعامًـا لجنوده، ففكر في أن يستخدم جلودَ هذه الغنم في ردمِ الخندق ليسـهلَ عملية تقـدُّم المنجنيق كلَّما أراد التقدَّم، والمنجنيق آلة لقذف النيـران وحتى لا يعوقه الخندقُ، فأرسل إلى جندهِ وكل مَنْ تبعـه أن يملأ جلد الشاةِ بالتراب، ثم يؤتي بالجـلود مملوءة ترابًا، فـتـوضـع في الخندق. وهذه الطريقةُ تُستخدم في عمل الخنادق والسواتر حتى الآن.

ونفَّـذَ الجنودُ أوامـرَ المعـتـصم ورُدِمَ الخـندقُ، وصُنِعَتْ دباباتٌ كبيرة تسع كلُّ دبَّابةٍ عشرةَ رجالٍ.

وفي صباح اليوم التالي بدأ القتال من جهة فتحة انهدمت من السور، وكـان أول المهاجـمين اشناسُ وأصحـابه، وكان الموضعُ ضيِّـقًا، فلم يمكنـهم أن يحاربوا فيـه لضيـقه، فـأمر المعتصمُ بالمنجنيـقات الكبار التي كانت متفـرِّقةً حول السور، فجمعَ بعضها إلي بعض في مكان قريب ووجـهها نحوَ فتحة السورِ، وأمر الجنودَ أن يُكثِّفوا رَمْـيَهم في هذا الموضع ففعلواَ ما أمرهم به.

ومع مطلع شمس اليـوم الثاني للمعركـة، كانت الحربُ على الأفشين ورجاله وجـيشه فتقدَّم الأفـشين وحقَّق نصرًا، وكان يقف إلى جواره المعتصم وهو يشرفُ على عمل قوَّاته.

فقال المعتصمُ: ما أحسنَ الحربَ اليوم!.

فـقـال الفـرغـاني أحـدُ قـادةِ المعـتـصم: الحرب اليوم أجـود منها أمس. وكان اشناسُ موجودًا يسمع هذا الحديث، فحثَّ قواته على الحـرب ليكونوا أحـسنَ من قوات الأفـشين وعنَّفـهم، وأصبحت الحربُ منافسةً بين قادة الجيش العربيِّ الإسلامي.

واندفـعت القـواتُ إلى داخل عمـوريَّةَ بعـد أن أطلقت عليـهـا النارَ من كل اتجـاه، واستـسلم ياطس قـائد جـيش عمـوريَّةَ، واصطحبـه جندٌ المعتصمِ خلف أمـيرهم إلى مـقرِّ القيادة، ثم أقبل الناسُ بالأسـرى والسبايا من كلِّ مكان حتى امتلأ المكانُ بالعسكر.

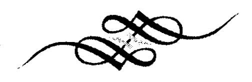
وأمر المعتصمُ بالمترجمين أن يعزلوا أصحاب الرتبِ والمناصبِ وأهلَ الشرفِ والقدر من الروم في ناحيةٍ، ويعزلوا الباقين في ناحية، وجمع المعتصمُ الغنائمَ. وهُدِّمَتْ عموريَّةُ، وجاء الجندُ ببابها الرئيسي إلى سامراء وهو أثرٌ موجودٌ إلى الآن.

وعاد المعتصمُ بعدها بغنائمَ كبيرةٍ جدًا إلى طرسوس، ومنها إلى سامرَّاء، وقد انتصر وظفر وأعطى للشرفِ العربي حقَّه، وأجار الهاشميَّةَ التي صرخَتْ واستجارت به صائحةً: وامعتصماه.

وقبل عودته إلى سامراءَ، تذكَّر المرأةَ التي استجارت به وقالت وامعتصماه، فدعا بالرجل الذي بلَّغه حديث المرأة، والذي شاهد الرومي وهو يلطمُها، ويقول لها: وما يقدرُ عليه المعتصمُ يجئ على فرسٍ أَبْلَقَ - أي في لونه سواد وبياض - وينصرك، ثم يضربها، كان يقول هذا ساخرًا، تذكر المعتصم هذا كلَّه وطلب فرسًا أبلق، ثم قال للرجل: سِرْ بي إلى الموضع والمكان الذي رأيتها تطلبُ فيه، فسار به وبحث عنها وعرف مكانها ثم وقف على رأسها وقد أمسك جنده بالجندي الذي ضربها - فلما وقفتِ المرأةُ أمامهُ قال لها: يا أختاه، هل أجابك المعتصمُ، فقالت في فخر: نعم يا أمير

المؤمنين، بـارك لله للمسلمين فـي أفعـالك وأمـثـالك. واصطحـبها في مـوكب مهـيب إلى منزل مـهيب أعدَّه لـها وجعل الجنديَّ الذي لطمهـا عبدًا وخادمًا لهـا، وقيل أنه أمر بقتله، بعد أن ملَّكَها مالَهُ ودارَهُ.

هذه هي نخوة المسلمين، ومروءةُ الأمراء والخلفاء، فالدم العربي المسلم دَمٌ شـريفٌ عفيفٌ، يغـار على شرفهِ وعـرضه على مرِّ الزمـان، مهمـا تكاتفت قوى الشـر والباطل، والأمَ العربية شريفةٌ عفيفةٌ مجاهدةٌ على مرِّ السنين.

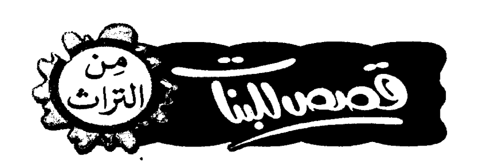


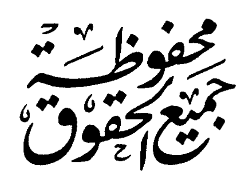


الشاة وزينب اليهودية

عبد المنعم الهاشمي







رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

الشاةَ وزينب اليهوديَّة

خيبر وأحداثها ... قال رسول الله ﷺ:

اللهمَ ربَ السماواتِ وما أظللن
وربَ الأرضينَ وما أقللن
وربَ الشياطينَ وما أضللن
وربَ الرياحِ وما أذرين
فإنَّا نسألك خيرَ هذه القرية
وخيرَ أهلها وخيرَ ما فيهاَ
ونعوذ بكَ من شرِّها وشرِّ أهلها
وشرِّ ما فيها أقدموا باسمِ اللَّه[1]

من دعاء الرسول ﷺ.

حقد اليهود:

دعا ﷺ دعاءه السابقَ عندما أشرف على دخول خيبر في المحرم سنةَ سبع هجرِّيةَ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام.

وقد كانت خـيبر حصنًا حصيـنًا لليهود في المدينة، لا يَظُنَّ ظانٌّ أن المسـلمين داخلوها أبدًا، ونسـوق هنا حوارًا بين يهوديٍّ فيـمَّن كانوا بذمةِ المسلمين وجوارهم أي من أهل الذمـةً وحُسن الجـوار للمـسلمين وهو أبو الشحم اليـهودي وبين صحابيٍّ مسلـم هو عبد الله بن أبي حـدرد الأسلمي ﷺ لنرى كـيف كـان اليـهـود يُضمرون السوءَ للمسلمين، قبل أن نعرض أول محاولةٍ يهودية لاغتيال الرسول ﷺ.

فلما أسـتعَّد الرسول ﷺ لدخـول خيبر وتجـهز النَّاس لـذلك، شفَّ علـى يهـود المـدينةِ الذيـن هم موادعون لرسـول الله ﷺ، وعرفوا أنهم إذا دخلوا خَيْـبَر أهلك الله خَـيْبَـر كما أهلـك يهود بني قيـنقاع والنضير وقريظة.

يقول عبد الله بن حدرد الأسلمي: فلما تجهز لم يبقَ أحدٌ من يهـود المـدينة له على أحـدٍ من المـسلمين حَقٌّ إلاَّ

لزمه، وكان لأبي الشَّحْم اليهودي عندي خمسةُ دراهم في شعير أخَذَتُهُ لأهلي فجاءني يطلب الدراهم.

قال أبي الشحم اليهودي: ادفع لي ما عليك من حقّ

فقال الأسلمي: أَجِّلْني فإنِّي أرجو أن أقدم عليك فأقضيكَ حقَّك - إن شاء الله - إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وَعَدَ نبيَّه خَيْبَر أن يُغنمَهُ إيَّاها.

قال أبو الشحم اليهودي ساخراً - وقد ملأ قلبهُ الحسدُ والغلُّ -: تَحْسَبُ أنَّ قِتال خَيْبَر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراةِ عشرةُ آلافِ مُقاتلٍ[1]!!

قال ابن أبي حدْرَدَ: أتخوِّفُنا يا عدوَّ اللهِ بعدوّنا وأنَت في ذِمّتنا وجوارنا؟ والله لأرفعنَّكَ إلى رسول الله ﷺ.

(١) انظر: «المغازي» (ص٦٣٤، جـ ٢).

ومضى أبو حـدرد الأَسْلميُّ إلى رسول الله ﷺ يشكو ما سمعه من هذا اليهـوديِّ الحاقدِ ليبيِّنَ له كذبَ إدِّعائهم بحـسن الجوار، والذِّمَّةِ فـقلت: يا رسول الله أَلا تسمعُ ما يقول هذا اليـهوديّ، عندما ذكرت تأجيل ديني عنده وقلت له إنّ الله عزَّ وجلَّ قد وعـدك بخيبر تغنمهـا منهم **فقـال لي:** تحسبُ أن قـتالَ خيـبر مِـثْلَ ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراةِ عشرةُ آلافِ مقاتل!!

ويضـيف أبو حـدرد: فـسكت رسـول الله ﷺ ولم يرجع إليه شـيئًا إلاّ أنّي رأيتُ رسـول الله ﷺ حرَّك شفتيه بشيء لم أسمعهُ.

جـاء اليهـوديُّ لرسـول الله ﷺ شـاكيًا باكيًا يقـول: يا أبا القاسم، هذا قد ظلمني وحبسني بحقيِّ وأخذ طعامي.

قال ﷺ: «أعطه حقَّه»[1]. «يا عبد الله».

---

(١) «المغازي» (ص٦٣٥، جـ ٢).

فقال عبدُ الله بن أبي حدرد الأسلمي: فخرجتُ فبعت أحدَ ثَوْبَيّ بثلاثةِ دارهمَ وطلبت بقيَّةَ حقِّه فقضيتُه، ولَبستُ ثوبي الآخر، وكانت عليَّ عمامةٌ فاستفأت بها، واعطاني سَلَمة بن أسلم ثوبًا آخر، فخرجت في ثوبين مع المسلمين.. ونفلني الله خيرًا[1].

هكذا تبين حقد هؤلاء على رسول الله ﷺ ولنضرب الزمثلة علي ذلك.

يحرفون الكلم:

كان اليهودُ من دافعِ حقدِهم يُحرفون الكلم، فكلما اجتمعوا بالرسول ﷺ وأرادوا أن يستمعوا إليه يقولون له: «راعنا سمعَك، واسمع غير مسمعٍ»، وظن بعض المسلمين أن هذا شيء من أدب أهل الكتاب، فجعلوا يقولونه للرسول ﷺ كما تقوله اليهودُ،

---

(١) المصدر السابق.

وكلمة «راعنا» بلسان اليهـود ـ كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ تعني السبُّ القبيح والرعونة.

ويُروى عن أوثق المفسرين: أنها كلمة كره الله عزَّ وجلَّ أن تُقـال لنبيـه ﷺ كمـا كره النبيُّ أن يقـال للعنب كرم، وللملوك عبدي[1].

وفي اللغة أن راعنا معناها في اللغة العربية: أَرعنا سمعك من الرعـاية: «أرْعَاه سمـعه أصـغى إليه، ومنه قـوله تعالى راعنا»[2].

وكان اليهود يقصدون بها السخرية والشتم لاشتباه كلمـة «راعنـا» بالرعـونة والحـمـاقـة، وبذلك يكون مقـصدهُم من الجملة أو مـعناها عندهم: واسمع غـير مسمع، وراعنا: أي اسمع منّا لا أسمعك اللهُ.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» سرة النساء الآية: ٤٦.
(٢) انظر: «مختار الصحاح» (ص٢٤٨) مادة «وعى»، ط١.

ولذلك نهى اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمين أن يتشبَّهوا بهؤلاء اليهودِ في مخاطبته ﷺ بجملة تشتمل على معنيين متعارضين هما: الرعاية - الرعونةُ.

ونزل قول الله عزَّ وجلَّ يحذر المسلمين من هذا المقصد الخبيث لليهودِ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة:١٠٤). أي: قولوا انتظرنا وأمهلنا حتى نفهمَ ونعيَ ما تتلوه علينا من آيات القرآن الكريم.

البخل والشح:

اليهوديُّ معروفٌ ببخله، ولا جدالَ من ذلك، ولكن عندما يأمر اليهوديُّ آخر بالبخل فإنَّه هنا يخرج عن مألوف إلفناهُ فالبخل في طبعه، حتى أنه يحضُّ الناس على البخل.

لم يكن طبعهم البخل فقط هو الدافع ولكن حقدهم وكراهيتهم للمسلمين جعلتهم يجلسون إلى

الأنصار ويتحـدَّثون إليهم، ويحذرونهم عاقبـة إنفاقهم لأموالهم في سبيل الله، **ويقولون لهم**: إنَّكم لا تدرون ما يكون غدًا، وإنَّا نخاف عليكم الفقر في ذهابها!

ولم يبخلوا بالمال وحده وإنما بخلوا بعلمهم، فكانوا إذا سألهم المهاجـرون والأنصار عن شيء من أحكام أو أخبار تكون قد جاءت في التوراة مصدقةً لرسالة محمد ﷺ كانوا ينفونها للتشكيك أو يكتمونها عنهم، وقد نزل قول الله عزَّ وجلَّ فاضحـًا هذا الموقف، فتوعَّدُهم بالعذابِ المهين، يقـول عزَّ وجلَّ: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (سورة النساء: ٣٧).

بهـذا العـرض بيَّنا هذا الحـقـد الكامن في نفـوس هؤلاء، ولذلك قـرَّر الرسـول ﷺ إخـراجـهم من المدينة، وكانت خيبر هي آخـر وأكبر معاقِلهم، ولذلك سنعرض على أحداثِها بعد أن عرضنا لهؤلاء.

أحداث خيبر:

أقام الرسولُ بعد صلح الحديبية في المدينة شهر ذي الحجة سنة ست هجريَّة وأياماا من المحرَّمِ سنة ٧ هجريَّة، ثم بدأ ﷺ بتنفيذ خطة للاستيلاء على خيبر بعدما رأى من اليهود نفاقًا شديدًا، وعدواةً بيّنة، رأى على أثرها تجمُّعًا لهم في خيبر ليكيدوا للمسلمين، وما إن علمت غطفان بخروجِ الرسول إلى خيبر أو استعدادِهُ لذلك حتى خرجوا هم أيضًا لمعاونة حلفائهم يهود خيبر وانضمت إليهم قبائل بني قينقاع والنضير.

كان عدد المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ألفا ومائتين من أبطال المسلين بينهم مئتا فارس، وقطع المسلمون شوطًا شقَّ على النَّاس حتى وصلوها في المساء.

عسكر المسلمون ليلاً حول حصون خيبر، وعندما أصبحَ الصبحُ، وبدأ اليهودُ بتأهبون لعملهم فاجأهم

المسلمون فاضطرب اليهودُ، وولى فريق منهم هاربًا إلى الحصـون. وقال ﷺ: الله أكبـر خربت خيـبر، ثم هاجم المسلمـون الحـصـون، وخـرج يهـوديٌّ اسـمـه مُرحب، مشهور بالفروسيَّة. فأنشد قائلاً:

قد علمت خيبَرُ أني مرحبُ ❁ شاكي السلاح بطلٌ مجرَّبُ
أطعن أحيانًا وحينًا أضرب ❁ إذا الليـوث أقبلت تجـرَّبُ
إن حماي للحمى لا يُقرَبُ

ثم نادى من يبارزُ؟ من يبارزُ[1].

فخرج إليه محمد بن مسلمة، وتبارز الرجلان حتى قَتَلَ محمدُ بنُ مسلمة مرحبا، وخرج أخو مُرحب يريد القتالَ، فـبرز له الزبير بن العـوام وقتله فاشتـدَّ القتال واقتـحم المسلمـون حصونَ خـيـبـر، وكان لهم النـصرُ المؤزَّرُ، فـأصبح من بقيَ من اليـهودِ وأمـوالهم غنيـمةً للمـسلمين، إلا أنَّ الـرسـول ﷺ أعطـاهم الأمنَ

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام.

والأمانَ، لكنهم امتلأوا حقدًا يزيد على حقدِهم، وبدأ اليهـودُ ترجمة هذا الحقـد إلى مؤامرةٍ كبـرى، اتسمت بالغـدرِ، والخسَّةِ، وكـانت صاحـبة هذه المؤامـرة هي زينب بنت الحارث اليـهودية التي فقدت أخاها مـرحبا وكان فارسًا ذكرنا موقفًـا سابقًا له، وقُتل زوجُها سلام بن مشكم، وهو فارسٌ يهوديٌّ أيضًا.

المؤامرة:

لما فتح الرسولُ خيـبر وأطمأنَ، جعلت زينب بنت الحارث تسأل: أيُّ الشاةِ أحبُّ إلى مـحمد؟ فيقال لها: الذراع والكتف؟ تأملت قليلاً ثم مضت إلى حظيرتها، وهي تقول: لن يصلـح القتال مع مـحمد، إنما قـتالُه يكون بالسُّمِّ، فقد كَثُرَ أتبـاعُهُ وتطاولت سيوفهم، وما أن وصلت إلى حظيرتـها حتى أمسـكت بالشاة وهمَّت بذبحها، ولكنَّها توقـفت قليلاً وهي تقول لأبحث أولاً عن أفضل السموم، ومضت إلى رجالٍ ونساءٍ يهوديات

لهنَّ دراية في السموم، فاجمعوا لها على سمٍّ سريع لا يُبْطئ في مفعوله، فأخذت منه وعادت إلى حظيرتها فأمسكت بالشاة وذبحتها، ثم أكثرت السَمَّ في الذراعيْن والكتفيْن. وقامت بشيها وإعدادها على النَّار، وعادت فوضعت السُّمَّ مرةً أُخرى.

فلما غابت الشمس صلى رسول الله ﷺ المغرب وانصرف إلى منزله فإذا به يجد زينب جالسةً أمام داره، فلما سألها عن سبب مجيئها **قالت**: أبا القاسم، هديةُ أهديها لكَ - وكان ﷺ يأكلُ الهدية ولا يأكُلُ الصدقة[1]. فما إن حان وقت العشاء وحتى أمر الرسول بالهدية فوضعت بين يديه، ثم قال ﷺ لأصحابه، وهم حُضور أو من حضر منهم: ادنوا فتعشوْا! فدنْوا ومدُّوا أيديهم، وتناول رسول الله ﷺ الذراع، وتناول معه الطعام بشر بن البراء، وما إن نهش رسول الله ﷺ منها نَهْشةً، فلما ازدرد رسول الله ﷺ

(١) «المغازي» للواقدي (ص٦٧٧، جـ ٢).

منها نَهْشًا. تنهش بشر، فلما أكَلَ رسول الله ﷺ أكَلَ بشر ابن البراء.

فقال رسول الله ﷺ فجاة: «كُفُّوا أيدكم فإنَّ هذه الذراع تُخبرني أنَّها مسمومةٌ».

فقال بشر بن البراء: نَعَم والله يا رسول الله وجدت ذلك من أُكْلَتي التي أكلتُها، فما منعني أن أَلْفِظَها إلاَّ كراهيةَ أن أُنغّصُ عليك طعامَك، فلمّا تسوَّغتَ ما في يدك لم أرغب بنفسي عن نفسِك[1].

بعد هذه الكلمات مباشرة تغيَّر لون بشر بن البراء وبدأ يعاني من آلام السم وظل يعاني من هذه الآلام حتى مات في هذا العام.

أما رسول الله ﷺ فقد عصمه ربه من النَّاس ومن غدر الحاقدين ومن اغتيال الماكرة الأثيمة، فقد عاش ﷺ بعدها ثلاث سنوات.

---

(١) أورد هذا النص الواقدي في «المغازي» (جـ٢، ص٦٧٨).

ودعا رسول الله ﷺ على الفور زينب بنت الحارث اليهوديَّة فقال لها: «سممتِ الذراع؟» - يقصد ذراعَ الشاه -، فقالت: من أخبرك؟، فقال ﷺ: «الذراع»؟!! فقالت: نعم. قال ﷺ: «وما حملك على ذلك؟»، قالت: قتلت أبي وعمي وزوجي. ونِلتَ من قومي ما نلت، فقلتُ: إن كان نبيًا فستخبرهُ الشاهُ ما صنعتُ، وإن كان ملكًا استرحنا منه.

ولما كان القصاصُ حياةً وعدلاً، شرعه الله في كتابه العزيز، فقد أمر رسول الله ﷺ بها فقتلت[1].

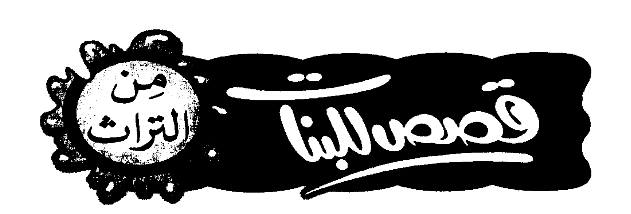
وقد جاءت روايات أخرى تقول: فتجاوز عنها رسول الله وعفا عنها[2].

ولم تكن هذه الحادثة هي أول محاولات اليهود لاغتيال النبي ﷺ أو آخرها، إنما كانت البداية، فقد دأبوا على إيذاء جسده، وإيذاء نفسه، فعصمه الله منهم.

---

(١) «المغازي» (جـ ٢، ص٦٧٨).

(٢) ابن كثير «البداية والنهاية» (جـ ٤، ص٢٠٨، ص٢١١)، انظر: قصة الشاه المسمومة.



من أجل هذا طلقتك

عبد المنعم الهاشمي





رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة ١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

من أجلِ هذا طلقتُك

حاتمُ بنُ عـبدِ الله بن سعـدِ الطائِيُّ من أشهـرِ أجوادِ العربِ وكرمائِهم في الجاهليَّـة، يُعرف حاتم الطائي بسيِّدِ الكرماءِ والأجوادِ. مات نحو سنة ٤٥ قبل الهجرة.

كان كرمُ حاتم يزعجُ زوجته «ماوية» فقد كانت تحْسبُ كرمه مـذمَّةً وإسرافًا، وتظن أنَّ البـخلَ والشحَّ الذي يوفر المال هو أفضلُ من الكرم والسخاء.

ولكي نتـعرَّفَ على كـرمِ حاتمِ الطائيِّ أشـهرِ أجـوادِ العربِ في الجاهليَّةِ نذكر مشاهدَ كثيرةً منها، أنَّه كان يملك فرسًا تتحدث بها العربُ كلُّها في العدو والسرعة والرشاقة والجمال، حـتى إنَّ خبراء الخيل آنـذاك قالوا فيهـا شعرًا، فما كـان من مجموعـة من فرسان العرب الذين يـعرفون قيمـة الخيل الـذي لا تُقـدرُ بمال إلاَّ أن حملوا أكياسًا من الذهبِ والدراهم، وأضمروا النيَّةَ على أن يدفعوا أيَّ مبلغٍ وأيَّ ثمنٍ مـهمـا كان ضـخمًـا في هذه الفـرس العربيَّـة الأصيلة التي يملكها حاتم الطائي أشهر كرماء العرب.

اقترب موكبُ الضـيوفِ من بيت حاتم الطائي فرحَّبَ بهم، وكعادته في إكرام الضيف فقد تلفتَ حوله فلم يجدْ ما يقدمُه لضيفه من طعامٍ فقد نَفِدَتْ غنمُه، ولا يملك من الإبل شيئًا، فما كـان منه إلاَّ أن ذبح فرسَهُ وأعدَّها طعامًا شهـيًا وقدَّمــه لضُيوفـه، ولما أقبل الضيـوفُ على الطعام تحدث أحدهُم عن فرسِ حاتم يريدونها بأيِّ ثمن.

فأجاب حاتم: وَدِدتُ لو كانت لكم بغـير ثمن ولكني صنعتها طعامًا لكم.

أصابت الـدهشةُ ضيـوفَ حاتم ولكنهم أدركـوا على الفـور أنهُ حاتم الطائي أشـهـرُ أجوادِ العـربِ وأكرمُـهم وأسخاهم.

مروءة حاتم الطائي:

وكان حاتم الطائي رجلاً صاحبَ مروءةٍ وكرم، وكان يقصدُه من العربِ الشرفاءُ والشعراءُ الشجعان، وكان هناك رجلٌ يُقال له عـبد قيس بن حـفاف البرجُـمي، جاء إلى حـاتم الطائي في دماءٍ حـملهـا عن قومـه يجب أن يدفع

عنهـا ديةً لأعدائهم، ولكـن قومـهُ أخلفوا وعـدهم ولم يقوموا بواجبهم، فأسلموه فيها، وأوقعوهُ في مأزقها حتى عجـز عن دفعـها؛ **فقـال:** والله لآتين من يحمـلها عني، وكان عبـد قيس هذا شريفًا شـاعرًا شجاعًا، فـقصد إلى حاتم الطـائي، فلما قدم عـليه، **قال:** إنَّه يا كـريم العرب وقعت بينـي وبين قومي دماء فـتواكلوها ـ أتكل بعـضهم على بعض ـ وإني حملتهُا في مالي وأهلي، فقدمت مالي وأخرَّت أهلي، وكُنتَ يا كـريم العرب الأملَ البـاقي بعد الله، فإن تحـملتها فـربَّ حقٍ قد قـضيتَـه عني، وهَمٍّ قد كفيتنيه، فإن منعك من السداد عني مانع لم أذْمُم يومَك، ولم أيأس من غدِك، وأنشأ شعرًا يرجوه فيه أن يُسدِّدَ عنه هذ الدين، **وقال له:**

حـملت دمـاءً للبـراجم جَـمَّـةً ... فـجـئـتك لمَّا أسلمـتني البـراجمُ

وقـالوا سـفـاهًا: لم حَـمَلتَ دمـاءنا ... فقلت لهم: يكفي الحمالة حاتمُ[1]

فـقـال له حـاتم: إني كنتُ لأحبُّ أن يأتـيني مـثلك من قومك، فـخذ هذا نصـيبي من الغـارة على بني تميم فـخذه وافرًا، فهو مائتا بعيرٍ سوى بنيها وفصالها (صغارها) فإن كان

(١) «ذيل الأمالي» (٢٢)، و«السمط» (١٢).

يكفي ما عليك من دينٍ وحمالةٍ فذلك خير وإن لم تكف فسوف أكملها لك. ولا أحبُّ أن تروِّعَ قومكَ بأموالهم.

دَهِشَ عبد قيس البرجمي من كثرة عطاء حاتم حتى قال مندهشًا: أيّ بعير دفعته إليَّ، وليس ذنبه في صاحبه فأنت منه برئ، فأعطاه حاتم الإبل وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعًا إلى قومه قانعًا، وقد كان متأكدًا من جود حاتم الطائي أشهر العرب كرمًا وقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُمي أبو حبيل ▫▪▫ لهمٌ في حمالته طويل.
فقلت له: خذ المرباع منها[1] ▫▪▫ فإني لستُ أرضى بالقليل
فلا مَنٌّ عليك بها، فإنّي ▫▪▫ رأيت المنَّ يُزرى بالجميلِ.

وكانت ماوية زوجة حاتم تئن في نفسها دون أن تبوحَ وذلك من كرم زوجها ونترك ماوبة نفسها تتحدثُ عن كرمِ حاتم الطائي زوجها.

تقول ماوية: أصابتنا سَنَةٌ اقشعرَّت لها الأرض، وأغْبَرَّ أُفقُ السماءِ وراحت الإبلُ تمشي ضامرةً من شدةِ الجوع

(١) المرباع: ما يأخذه الرئيس من الغنيمة خاصة، دون أصحابها وهو ربع الغنيمة.

وضنت المراضعُ على أولادِها لشُحِّ اللبن في ثديها، فما تسيل بقطرةٍ تُرضع بها صغارها، وشحَّ المالُ والطعامُ في هذه السنةِ، وايقنَّا بالهلاكِ، فو الله بينما نحن في ليلةٍ باردة، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تصايح أطفالُنا وصبيتُنا جوعًا، عبد الله ابن حاتم وعدي، وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين عبد الله وعدي، وقمت أنا إلى الصَّبية سفانة بنت حاتم وأقبل يعلّلني بالحديث ليواسيني، فعرفت ما يريدُ، فتناومت وأدعيت أن النومَ يداخل جفوني.

فلما مضى الليل وغربت النجوم، إذا شيء رفع ستر الخيمة التي نحن فيها ثم عاد، **فقال حاتم:** من هذا؟ فسمع صوت جارتنا، **قالت:** جارتك فلانة، أتيتُك من عند صبيةٍ يبكون ويتعاوون عواء الذئبِ من الجوع، فما وجدت غيرك يا حاتم، وما وجدت مُعوَّلاً إلاَّ عليك ياأبا عدي. **فقال:** أحضريهم على الفور، فقد اطعمك الله واشبعك وإيَّاهم! فهرولت المرأةُ سريعًا لتحضر أولادَها، فأقبلت تحمل اثنين ويمشي بجانبها أربعة، كأنها نعامةٌ حولها أولادُها.

فقام حاتم إلى فرسه فطعن رقبتها بسكين فخرت مذبوحة، ثم كشطه عن جلدها وسلخه، ودفع السكين إلى المرأة جارته **فقال لها:** هيا أعدِّي الطعامَ.

تقول ماوية زوجة حاتم: فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحي يطوف على الناس جميعًا بأبياتهم بيتًا بيتًا ورجلاً رجلاً وطفلاً طفلاً، **فيقول:** هبوا أيُّها القوم، عليكم بالنار فاجتمعوا، والْتَفَع في ثوبه، وجلس في ناحية ينظر إلينا، فو الله ما ذاق من اللحم قطعة صغيرة، على الرغم من أنَّه أحوج إليه منَّا لشدَّة ما أصابه من الجوع الشديد، فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلاَّ عظم وحافر، أي قضواْ على اللحم كله وأكلوه.

فأنشأ حاتم يقول لامرأته التي تلومه على إنفاق المال:

مهلا نَوَار أَقِلِّي اللوم والعَـزَلا ▫▪▫ ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً ▫▪▫ إنَّ الجوادَ يرى في مالهِ سُبُلاَ

هنا يقول لامرأته واسمها نوار ألاَّ تلومه على إنفاق المال، فالبخيل يرى للمال طريقًا واحدًا وهو كنزه وعدم إنفاقه وحرمان نفسه والناس من الرزق الذي أرسله الله

له، أمَّا الجوادُ الكريم فيرى في مالـه طُرقًا كثيرة هي إعانة المحتاج وإكرام الضيف والإنفاق في وجوه الخير.

عاشت ماويةُ زمـنًا طويلاً مع حاتم الطائي فقد أحـبها وأحبـته، لأنهـا كانت من أحـسنِ النساءِ وأجمـلِ النساء - وظلت عشرة الزوجيَّةِ طويلةً، لا ترى فيها ماويةُ غير شيء واحد يتكرر وهو للحق شيء مثير وجميل يملأ الدنيا حركة وجمالاً وسخـاءً وجودًا، هذا الشيء هو مال حاتم الطائي الذي يأتيـه بآلاف الإبـل بل بعـشـرات الآلاف من الإبل والغنم والخـيل، وكل صنوف الأمـوال في عـصـره قـبل الإسلام بعشراتِ السنين، وكان هذا المال يأتي بكثرة شديدة تجعل مـاوية زوجة حاتم فـي عزٍّ ما بعـده عزٌّ وسعـادةٍ ما بعدها سعـادةٌ، إلاَّ أنها كانت تجد مصارفَ هذا المال كـثيرةً فيصبح حاتم الطائي في الطائيين ويُمـسي افقرَهُم من كثرة إنفاقه فتحزن ماويةُ وتتجه لحاتم باللومِ الشديد.

وتقول له: أنت مُهْلَكُ أموالنا لا تُبـقي لنفسك ولأبنائك الثلاثة شيئًا فابنك عـدي وابنك عبد الله، وابنتك سُفانة تمرٌّ

بهم أيامٌ لا يجدون ما يسدُّ رمقهم من الجوع، ثم ما تفتأ تنتهي من حديثها حتى ينهمر المالُ الحلالُ كالمطر على حاتم فتسكت حائرةً بين السعادة والحزن لمجيء وضياع المال.

عودة إلى قصة زواج حاتم من ماوية:

على الرغم من كل ما ذكرناه عن ماوية من كرهٍ لسخاءِ حاتم وإنفاقه وكرمه فلنعد إلى قصة زواجها من حاتم لنجد أن الكرم هو مهرها المشروط - وهي عربية من بنات ملوك اليمن، كانت ذاتَ جمالٍ وكمالٍ، وحَسَبٍ ومالٍ، فآلت على نفسها ألاَّ تتزوج إلاَّ من كريمٍ، ولئن خطبها لئيم لتجدعَنَّ أنفه فتحشاها الناس حتى أسرع إليها زيد الخيل وكان كريمًا، وحاتم الطائي وهو أشهر كرماء العرب وأوس بن حارثة وكلُّهم من طيئ «طائيون» - فارتحلوا إليها. فلما دخلوا عليها ،**قالت:** مرحبًا بكم، ما كنتم زُوَّارًا، فما الذي جاء بكم؟

قالوا: جئنا زُوَّارًا خُطَّابًا، **قالت:** أكْفاءٌ كرام.

ثم رحَّبتْ بهم وانزلتهم، وفرَّقتهم فجعلت لكلٍّ واحد منهم مكانًا ينزل فيه وزادت في ضيافتهم وإكرامهم.

فلما كـان اليوم الثاني بعثت بعض جـواريها، في زي فقيرةٍ سائلةٍ تطلب منهم مـالاً كل واحدٍ على حدةٍ فبدأت بزيد الخيل، فأعطاها نصف مـا حمل من مال. ثم ذهبت لأوس، فـأعطاها نصف مـا حـمل من مـال. ثم ذهبت لحاتم فـأعطاها كلَّ ما كان فـي يده من مال وحمل إليـها جميع ما حُمل إليه.

فلمـا كان اليـوم الثـالث دخلوا عليهـا، **فقـالت:** ليصف كل واحـد منكم نفسه في شعـره فوصف زيد نفسـه بأنَّه صاحب المعـارك الكبرى بينه وبـين العرب وذكر الدماء والقتل.

وقـال أوس بن حـارثة: إنَّكِ لتـعلمين أنَّـا أكـرمُ أحسابًا، وأشـهر أفعالاً من أن نصف أنفـسنا لك، ثم ذكر شعرًا قيل فيه.

أما حاتم الطائي: فقد تحدث عن صفـةِ الكرمِ وعلاقتها بالمال، **فقال شعرًا جاء فيه:**

أمـــاويُّ إنَّ المال غـــادٍ ورائحٌ ■■■ ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذكرُ

بيَّن لهـا حاتم أنَّ المـال يزول ويأتى، يجيء ويذهب، ولا يبقى منه إلا الأحـاديث وذكر ما يُفعل به، فـإن كان كرمًا أُثنى عـلى صاحبه وأن كان بخـلاً كرهه الناس، أى كرهوا صاحب المال.

تزوَّج حـاتم مـاوية، وقلنـا إنَّهـا كـانت من أحـسن النساء، فلبـثت عنده زمنًا، ولكنها وجـدت ابن عم حاتم الطائي وهو مالك الطائي **يقـول لهـا:** يا ماوية مـا تصنعين بحاتم؟ فوالله لئن وجد شيئًا لَيتْلِفنَّهُ، ولئن لم يجد ليتلفنَّ ولئن مات ليتركنَّ ولدهَ عـالةً على قومه. ثم سكت قليلاً وماوية لا تُعلِّق.

ثم عاد فبادر ماويةَ قائلاً: طلِّقي حاتمًا وأنا أتزوجُ بك، فأنـا خيـرُ لك منه، وأكثـر مالاً منه وأنا أمـسك عليك وعلى ولدك.

فقالت ماوية لمالك: صدقت، إنَّه لكذلك.

وظل مالك يراودها في أمر طلاقـها من حاتم إلى أن طَلَّقَتْ حاتمـًا.

كان النسـاء أو بعضهن يُطلقن الرجال في الجـاهلية، وكـان طلاقهن أنَّهنَّ يحـولن أبواب خـيامـهن إلى جهـةٍ أخرى، فـإن كان البـابُ إلى المشرقِ جَعَلْنـه إلى المَغْرب؛ وإن كان البـابُ قِبَلَ اليمنِ جـعلنه قِبَلَ الشـام، فإذا رأي ذلك الرجل علم أنها قد طَلَّقَتْهُ.

فأتى حاتم فوجدها قد حوَّلت باب الخباء، **فقال لابنه:** يا عديُّ، ما تـرى أمك؟ ما عدا عليهـا؟ - كانت أمارات الحزن تبدو على عديّ.

فأجاب أباه قائلاً: لا أدري! غير أنها غيَّرت باب الخِباء، وكأنه لم يفطن لما قال.

ثم أخذ حاتم ابنه عديّ وترك الدار وهبط به بطن وادٍ بن الأودية.

وكانت دار حـاتم الطائي معروفـةً للناس ينزلون عنده ويأكلون من طعامه.

وجاء قـوم ممن يعرفـون هذا البيـت وصاحبـه الكريم فنزلوا على باب الخبـاء (البيت) كما كانوا يـنزلون فتوافى عددهم خـمسين رجلاً، حـتى ضاقت بهم مـاوية ذرعًا. ففكرت ماذا تفعل؟

فقالت لجاريتها: إذهبي إلى مالك، **فقولي له:** إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمـسون رجلاً، فأرسل إلَيْنا بناتٍ أي: إبل وغنم ولبن نسقيهم ونطعمهم.

وقالت لجاريتها: أنظري إلى جبينه وفـمـه، فإن أجابك بالمعـروف فاقـبَلي منه وإن ضـرب بلحـيتـه على زَوْرِهِ، فارجعي ودعيه.

فلمـا أتت الجـارية مـالكًـا الذي طلقـهـا من حـاتم ليتزوجها وجدته يربط إناء اللبن في حسمه ومتوسدًا به!!

فايقظته وأبلغته رسالة ماوية؛ وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلمَ الناس مكانك فأدخل يده في رأسه، وضربَ بلحيته على زَوْرِهِ بُخلاً وشحًا.

وقال لها: اقرئي ماويةَ السلامَ، وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتم الطائي من أجله، فما عندي لبن أسقيه لأحد، وما عندي ناقة غزيرة باللحم، وما عندي شيء يكفي أضياف حاتم! فرجعت الجارية فأخبرت ماوية بما رأت من مالك، واعلمتها بما قاله لها.

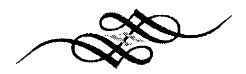
فقالت ماوية للجارية: ويلك! إئتي حاتم فقولي له: إن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا، ولم يعلموا بمكانك، فأرسل إلينا بشاهٍ أو ناقة ننحرها ونطعمهم بها، وبلبن نَسْقِهِمْ، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك وبعدها يذهبوا إليك!!.

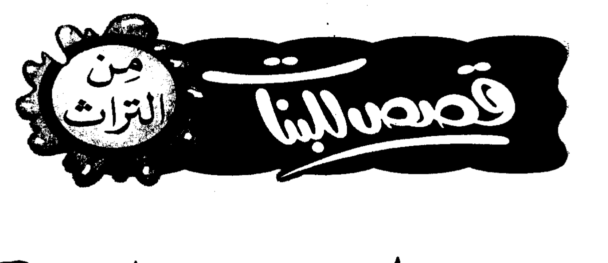
فأتت الجارية حاتمًا فصاحت به، **فقال حاتم:** لبيك قريبًا دعوت!

فقالت: إنَّ ماويَّة تقرأ عليك السلامُ؛ وتقول لك: إنَّ أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، فأرسل إليهم بناقة ننحرها ولبن نسقهم.

فقال: نعم وأبي! ثم قام إلى الإبل فأطلق ناقتين كبيرتين ثم صاح بهما حتى أتى دار ماوية، فذبحهما.

فجعلت ماوية تصيح، **وتقول:** هذا الذي طلقتك فيه! تترك ولدك وليس لهم شيء!.





زرقاء اليمامة

عبد المنعم الهاشمي





رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

زرقاءُ اليمامة

١ ـ قومُ تُبَّع:

جاء في القرآن الكريم في ذكرُ قومِ تُبَّع في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة الدخان: ٣٧). وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (سورة ق: ١٤). هؤلاء القوم ما هي قصتُهم؟ وما هي علاقتُهم بالإسلام؟ وهل عاشت زرقاءُ اليمامةَ في عهدِهم؟

وقد وجدنا لكي نتحدثَ عن زرقاءِ اليمامةِ فلابد أنْ نتحدثَ عن التباعنة أو (التبابعة) أولاً.

تحدَّث المفسرون عن التبابعة فقالوا[1]: ليس المراد بتُبع رجل واحد بل المراد به مُلوك اليمنِ، فكانوا يُسمُّون ملوكَهم التبابعة، فتُبع لقب للملك منهم كالخليفة بين المسلمين، وكسرى للفرسِ، وقيصر للرومِ، وسُمِّيَ كل واحدٍ منهم تُبَّعًا لأنَّه يتبعُ صاحبهُ، ومن الملوك التبابعة: الحارثُ الرائش وأبرهة ذو المنار، وشمر بن مالك، وحسان اليماني وغيرهم، ومن الذين فتحوا البلادَ كالصين حتى إنَّه كان للملك منهم «التبع» أن يقول «قد دعتني نفسي أن أنطحَ الصين»، وبالفعل قد

---

(١) القرطبي (جـ ١٦، مجلد ص٩٦، ٩٧). ط العلمية ـ بيروت.

أعدوا جيوشًا زحفت للصين وواصلوا فتوحاتهم داخلها. وهو ما كشفت عنه الحفائرُ الجيلوجيةُ التي اثبتت ذلك بلا شك[1].

ويكفي القارئ معرفةَ أنَّ من بين أولئك الملوك «التابعنة» بلقيسَ ملكةَ سبأ، ومعاصرتها لنبي الله سليمان الحكيم عليه السلام.

كما يكفي معرفةً أنَّ حضاراتٍ بكاملها كانت موجودةً ومتعارفًا عليها حضريًا في ربوع الشام وفلسطين، وتعرف باسم «تدمر» وهو اسم إحدى الملكاتِ اللائي ينتمين للملوك التباعنة فهي ابنة حسان اليمانيِّ المتعارف عليه شعبيًا باسم «ذو اليمنيْن» وهو ما كان يطلق عليه.

كما إن من بين أولئك الملكاتِ المنتميات أيضًا للملوك التبابعةِ الملكة المعروفة «زانوبيا» التي قاومت الإمبراطورية الرومانيةَ طويلاً إلى أن وقعت في الأسر وسحبت كأسيرةٍ هي وعرشها إلى روما حوالي عام ٢٠٠ قبل الميلاد.

أمّا آخر الملوكِ التباعنة فهو الملك «ذو اليزن» المعروف بسيرته الكبرى وكذلك ابنه الملكِ «سيف بن ذي يزن» وهذان الملكان «سيف وأبوه» بالذات قد لعبا الدورَ الأكبرَ في التعريب داخل القارة الأفريقية، بدءًا بمصر والسودان والقرن الأفريقي المتاخم لليمن وأثيوبيا والسودان ومصر، وبقية أفريقيا، حتى إذا ما جاءت

---

(١) شوقي عبد الحكيم «سيرة الملوك التباعنة». ط الدار المصرية اللبنانية.

الفتوحاتُ الإسلاميةُ وجدت الأرض ممهدةً لاستنبات وانتشار الإسلام في القارة الأفريقيَّة.

كذلك تردُ مأثوراتُ التباعنةِ في قصةِ «زرقاء اليمامة» تلك الأميرة نافذة البصر، التي حذّرت قومها من غزو الملوك التباعنة، حين صعدت إلى أعلى أبراج المدينة وظلت تُهيب بقومِها وتقول: «**يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير...**».

وهذا ما سنعود إليه في قصتنا عن زرقاء اليمامة بعد أن نتحدث عن قوم تُبّع الذين ذُكروا في القرآن الكريم.

وقد ذكر المفسرونَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا أدري أتُبَّع لعينٌ أم لا**»، ثم روى عنه أنه قال: «**لا تَسُبّوا تُبعًا فإنَّه كان مؤمنًا**»[1]. فهذا يدلُّكَ على أنَّه كان واحدًا بعينه؛ وهو - والله أعلم - أبو بكر الذي كسا البيت بعدما أراد غزوَهُ، وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها ثم انصرف عنها لمَّا أُخبر أنَّها مهاجَرُ نبيٍّ اسمُه أحمدُ، وقال شعرًا أودعه عند أهل المدينة؛ فكانوا يتوارثونه عبر الزمان كابرًا عن كابر إلى أن هاجر النبيُّ ﷺ فأرَّوْهُ إيَّاه، ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوبَ الأنصاريِّ «خالد بن زيد» وفيه:

شهدت على أحمدٍ أنَّه ▫▪▫ رسولٌ من اللهِ باري النَّسَمْ

فلو مُدَّ عمري إلى عُمرِهِ ▫▪▫ لكنتُ وزيرًا له وابنَ عمّ

(١) «تفسير القرطبي» للآية ٣٧ من سورة الدخان، (مجلد ٨، جـ١٦، ص٩٧).

وكان في الكتاب الذي كتبه أيضًا: **«أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أُنزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك وربِّ كلِّ شيءٍ، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام»**، (يقول هذ الرسول ﷺ) ثم يُكمل: **«فإن أدركتُك فبها ونعمت، وإن لم أدرِكْك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة، فإنيّ من أُمَّتِكَ الأولّين وبايعتُكَ قبل مجيئك، وأنا على ملّتك وملة أبيك إبراهيمَ ﷺ»**. ثم ختم الكتاب ونقش عليه: **«للهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ»**. (الروم: ٤). وكتب على عنوانه: **«إلى محمدٍ نبيِّ اللهِ ورسولهِ، خاتم النبيين ورسول رب العالمين ﷺ، من تُبَّع الأوّل»**.

واختُلف في تُبَّعٍ هذا هل كان نبيًّا أو ملكًا، فقال البعض: كان تبع ملكًا، وقال الآخر: كان تُبع ملكًا من الملوك، وكان قومُه كهانًا وكان معهم قومٌ أهلُ كتابٍ، فأمر الفريقين أن يُقرِّب كلٌّ فريقٍ قربانًا ففعلوا، فتُقبل قربانُ أهل الكتاب فأسلم[1].

وقالت عائشةُ ﵂: **«لا تسبوا تُبَّعًا فإنَّه كان رجلاً صالحًا»**، وقيل: إنَّ تبعًا كان رجلاً من حمير، سار بالجنود حتى عبرَ الحيرةَ وأتى سمرقند فهدمَها، وقيل: إنَّه هو أبو بكر أسعد بن مليكرب، وإنما سُميَّ تُبعًا لأنَّه تبع مَنْ قبلهُ، وقد ذُكر أنَّ الله ذم قومَه في القرآن ولم يذمّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعظمهم في نفوسِهم، فلما أهلكهم الله تعالى ومَنْ قَبْلَهُمْ، لأنَّهم

---

(١) المصدر السابق (ص٩٧، ٩٨).

كانوا مجـرمين وكان من أجرم مع ضعف اليـد وقلة العدد أحرى بالهلاك. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية الكريمة: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ (سورة الدخان: ٣٧). إذ جعل الله عزَّ وجلَّ قـوم تبع خيرًا من قريش. وقيل: سُمِّيَ أولُهم تُبعًا لأنَّه اتبع قـرن الشمس وسافر بين الشرق مع العساكر.

٢ ـ جديس وطسم:

قـبيلةُ جـديس هي قـبيلة زرقـاءِ اليمـامـة، وقبـيلةَ طسم التي تجاورها، هما قبيلتان من أصل واحدٍ وأبناء عمومة.

فطسم: اسـمـها علـى اسم طسم بن لوذ بن أزهر بن سـام بن نوح. **وجديس:** اسمها على اسم جـديس بن عامر بن أزهر بن سام بن نوح. هاتان القبيلتـان كانت مساكنُهُمـا موضعًا باليمـامة، وكان اسم اليمامـة حينئذٍ جوًّا، وكـانت من أخصب البلاد وأكثـرها خيرًا واسم ملكهم أيامَ ملوكِ الطوائفِ «عمليق».

ولكن عمليـقًا هذا ملك طسم كان ظالمًا لما قـد تمادى في ظلمهِ وكانت سيـرتُه قبيحةً كـثيرةَ القبح والظلم، وخاصـةً مع جيرانِهِ من قبيلة جديس، وكلهُم من قومِ تُبّع.

وهناك قصةٌ تدلُّ على جذور العداوةِ التي نشأت بين قبيلة طسم وقبيلة جديس. **تقول هذه القصة**[1]: إنَّه كانت امرأةٌ من جديس اسمُها

---

(١) «الكامل» لابن الأثير، (جـ١، ص٣٥١). ط دار صادر ـ بيروت.

هُزَيلة، ولهـا زوجٌ اسمُهُ مـاشِق، فطلّقـها وأراد أخذ ولدِها مـنها، فاشتكت هزيلة زوجها ماشق إلى ملك طسم وهو «عمليق»، **فقالت:** يا أيها الملك، إنّي حملتُـه تسعًا، ووضعتـهُ دَفْعًا، وأرضعته شَـفْعًا، حـتى إذا تمّتْ أوصـالُه، ودَنا فِصـالُه، أراد أن يأخـذه منّي كُـرْهًا، ويتركَني من بعده وَرْهًا وحمعًا.

فقال عمليق ملك طسم الظالمُ: ما حُـجَّتك، ومـاذا تقول للردِّ عليها؟.

قال زوجُها ماشِق: حُجَّتي أيَّها الملك أنّي قد أعطيـتها المهر كاملاً، ولم أصِبْ منها طائلاً، إلاّ وليدًا خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً، فأمر بالغلام أن يؤخذ منهما الأم هزيلة والأب ماشق.

عند ذلك أنشدت هزيلة تقول:

أتينا أخـانا ليـحكم بيننا ▫▪▫ فـأنفَـذَ في هـزيلـة ظالما

فلما سمعَ المـلكُ عمليق قولَها غضبَ وأمـر إلاّ تتزوجَ بِكْرٌ من قبيلة جديس وتُهدى إلى زوجها قبل أن تؤخذَ مشورتُه قبل زواجها، وظلم جديس فلقوا من ظلمه بلاءً وجهدًا وذلاً.

وكان أن تزوجت فتاةٌ تُسمىَّ الشموس من قبيلة جديس فعرضوا الأمر علـى عمليق فـأساءَ إليهـا وإلى جديس، فـلما سمـع أخوها الأسود وكـان سيـدًا مُطاعًا في «جـديس» **قال لقومِه:** «يا معشر

جديس، إنَّ هؤلاء القومَ «طسم» ليسوا باعزَّ منكم في داركم، ولولا عجزُنا وضعفُنا ما كان لعمليق فضلٌ علينا، ولو اعترضنا طريقَ ظُلْمِهِ ونزعنا ما في نفوسنا من خوفٍ لكان لنا منه العدل ولما تمادى في ظلمه كما ترون فأطيعوني فيما آمركُمْ به، فإنَّه عزُّ الدهر، لكي نُذْهبَ الذُّلَ عن أنفسنَا ونحكمَ أمرَنا بأنفسنَا، فاسمعوا واقبلوا رأيي.

تحمَّستْ قبيلةُ جديس، ودبت في أوصالها نخوة العزّةِ والكرامة، **فقالوا للأسودِ زعيمهم الجديد:** نطيعك، ولكن قبيلة «طسم» أكثر منَّا رجالاً، وأقوى منَّا شكيمةً. **فقال الأسود:** فإنِّي أُعِدُّ للملك وليمةً من الطعام عظيمةً هو وحاشيته وقومه جميعًا فإذا جاءوا جميعًا في ملابسهم وحللهم، أخرجنا لهم السيوف وثأرنا لكرامتنا واسترجعنا عزتَّنا فقتلناهم أجمعين.

وافق أهلُه قبيلةُ جديس على الخطة، وصنعوا طعامًا كثيرًا لهم، وخرجوا به إلى قرب بلدهم، ودعا الأسود ملك طسم «عمليق» دعاه إلى تناول الغداء عنده هو وأهل بيته، فأجابه إلى ذلك، وخرج إليه مع أهله يرفلون في الحلل والملابس والذهب والزينة. حتى إذا أخذوا مجالسَهم أمامَ موائدِ الطعامِ ومدُّوا أيديَهم أمسك رجال جديس بسيوفهم المخبأة تحت أقدامهم، فشدَّ الأسود على عمليق فقتله لظلمه وجبروته وفساده، وهجم كلُّ رجلٍ منهم على جليسه فقُتل منهم الكثير أشرافًا وخدمًا، واسترد أهل جديس كرامتهم وعزتهم وشرفهم الذي أهانه عمليق ملك طسم.

وقال الأسود في ذلك شعرًا جاء فيه:

ذوقي بنبغيك يا طسمٌ مجَلَّلَةً ٥■٥ فقد اتيت لعمري أعجبَ العجبِ

وإن رعيتم لنا قُربى مؤكدةً ٥■٥ كنَّا الأقاربَ في الأرحام والنسبِ

وكانت هذه القصةُ عبرَ مئات السنين هي رمز العداوةِ بين جديس قبيلة زرقاء اليمامةِ، وأبناء عمومتم قبيلة طسم، وجميعهم من قوم تُبَّع.

وبعد هذه الخديعةِ من جديس، ذهب مَنْ بقيَ من طسم إلي حسَّانِ اليماني تُبَّع (ملك) اليمن فاستنصروه، **وقالوا:** إنَّ هناك قوةً ضاريةً بدأت تدبُّ بين قبائل جديس، وهم من العربِ البائدةِ وأميرتهم الحكيمة عميقة البصيرة «زرقاء اليمامة».

وقالوا له: إنَّ قبائلَ جديس نجحت أخيرًا عقب حروبها الطويلة مع قبائل طسم في إحداث نصر هائل إلى حد فنائها لقبيلتنا طسم وقد شتتوا فلولَها على طول جزيرة العرب شرقًا وغربًا ـ لقد لعبت بطسم أيدي جديس ـ.

عند ذلك أعد حسَّانُ اليمانيُّ تُبَّع اليمن جيشًا جرَّارًا، ليؤدب قبائلَ جديس وكانت زرقاءُ اليمامةِ «أميرة جديس» أكثر شعورًا واستبصارًا بالخطر المحدق بقومها ومدى استفحاله منذ المهد.

كانت على الدوام مدركة لخطر حمير وتُبَّعها الجديد، وكانت زرقاءُ اليمامةِ لا تنام الليل منذ أن علمت ووصل أسماعها، أنَّ الحميريين بقيادة هذا الفتى العائد من الصين وآسيا مهزومًا بعد انتصرات

آبائه وأجـداده هناك، كانت على علمٍ بأنه سـيعـيد بناء نفـسه، وأول هدف له هو «جديس» خاصةً وأن «جديس» بعد انتصارها الساحق على عدوها الأول طسم أصبحت تشكِّلُ قوَّةً فتيَّة ضاربة في وجهة هذا التُبَّعِ الجديدِ على طول جزيرة العرب بشقيها الشماليِّ والجنوبيِّ

فها هي مدينةُ اليمامة الآن عامرةٌ مزدهرة، ملء السمعِ والبصرِ، وها هي ملكتُها وأميرتُها زرقاءُ اليمامةِ مذهوَّةٌ بتقدُّمِ مدينتها وقبيلتها. ومن هنا فلن يهدأ للحميريين وملكهم التـبع الجديد حسَّان بن أسعد اليمـانيِّ - لن يهدأ لـهم بالٌ - قبل أن تطأ جـيوشُـهم الجَرارَةُ أرضَ جـديس، لاسيـما وأنَّهـا عـادت محَّـملةً بكلٍّ جـديدٍ من حروبهـا الآسيويَّةَ، التي لـم تطحنها بقدر ما أعادت فـتح شهيتـها من جديد للفتحِ والغزوِ والحربِ والدَّم المراقِ.

ولكم نبَّهتْ زرقاءُ اليـمامةِ الأذهانَ والعقـولَ لما يحدث ويجري من حولهم، مطالبة بعـدم انتكاس السلاح والخلود إلى لذائذ وغنائم حربهم مع طسم التي انتهت باستئصالهـا من الوجود. فعجلة حمير لن ترحم... وهذا قدرُنا.

من يمكن له أن يصدِّق يومًا.. بل لحظةً انتكاس الـرياتِ الخفَّاقةِ داخل مدينة اليمامة إثر النصرِ الـساحقِ على قبيلة جديس. والصوت الوحيـدُ المحذِّر كان لزرقـاء اليمامـة، يجيئـهم بلا صدىً مـبنيًا في اعتقـادهم على مجرَّدِ دلائلَ وظواهرَ لا أساسَ لها من جانب حـمير وتبعهـا الجديد وهو الذي لم يُفِقْ بعدُ من ضربـاتِ الآسيويين، التي أودت بأمرائهم وفيالقهم.

لكن من يسمع ويرى؟!

ذلك الذي يدبُرُه الحميريون وملهُم حسَّان لهم في الخفاء من اجتياحٍ وعدوانٍ، وهو ما حدث بالفعل من جانب التبع حسان بن أسعد اليماني الذي بدأ صحوةً في أيَّامه الأخيرة وعيناه الاثنتان تحُطَّان على قبائل «جديس» وعاصمتِها اليمامةِ التي أصبحت مضربَ الأمثالِ بين العربِ نظرًا لما تتمتع به من ثراءٍ وسطوة.

لذا آثر حسَّان اليمانيُّ ووزيرُه الأوَّلُ المقرَّبُ «حنضلة» اللجوءَ إلى الحيلة، وهما يُعدان العُدَّةَ لاجتياح اليمامةِ عاصمةِ «جديس». خاصةً وأنَّ قبائل حميرٍ بجيشها لم تفرغ بعد من استكمال استعداداتها وتوحُّدها بعد الخسائر التي مُنيَتْ بها في حروب الآسيويين. وخاصة أن هذه الغزوة المقبلة تجيء كأولى غزواتِ «حسَّان اليمانيِّ» كحاكمٍ جديدٍ لحمير وتوابعها. ومن الأسلمِ أن تجئ وما يترتبُ عليها بأقلِ الخسائرِ الممكنةِ.

لذا فمن الأرجحِ في مثلِ هذه الحالةِ، مهادنةُ جديس وحاكمتها الزرقاء وإخفاءُ نيَّةِ العدوانِ، الذي آثر التبع حسَّانُ أن يجريَ ليلاً، وبطريقةٍ مفاجئة ـ لا تسمح للعدو ـ شحذً قوَّاته وكتائبه خاصةً وأنَّها ـ أي قبائل جديس» ـ وملكتها تشرع أشرعتها، عقب الانتصارِ الساحقِ على مناوئيهم من قبائلِ طسم.

وهكذا أُجْرِيَ الإعدادُ للعدوان سرًا، مصحوبًا بالنيَّات الحسنةِ المعلنةِ لسكانِ اليمامةِ وأميرتها الزرقاء وهو ما أدركته زرقاء اليمامة ببصيرتها النافذة.

فما من رسالةٍ ـ معسولة ـ أصبحت تتلقَّاها من حكَّام حمير، إلاَّ وأثارت سخطها وطاقتها في استنهاض الهمم، بإزاء الخطر المرتقب القادم، الذي أصبح يطرق كل بيت وخباء مضروب في قبائل جديس، ولكن من دون طائلٍ يرجى: خذو حذركم الليلة قبل الغد. ولا من مجيب أو سميعُ يرجى.

المعركةُ الفاصلةُ:

أَحكمَ التُبَّع حسَّانُ اليمانيُّ خطتَه لاجتياح مملكةِ جديس أو قبائل جديس، وكانت ملكتها زرقاء اليمامة قد منحها الله عيونًا ترى على بعد عشرات الأميال أو قل المئات فكثيرًا ما جلستْ في شرفةِ قصرِها وقالت أنها ترى فرسانًا وتسميهم ربما بالاسم وتصف خيلهم وسلاحَهم ويأتون أو يصلون بعد يومْين من السفر وهم على ظهور خيلهم، وكان الناس أحيانًا لا يصدقون ما تقوله غيرأن الأيام تثبت صحة ما رأت وحكت لا تجد أحدًا معها في حِدّة النظر، وقد قيل إن في عيونها عروقًا سودًا، وهذه العروق هي عبارة عن كحل أسود يقال له «الإثمد»، كانت زرقاء اليمامة أول من اكتحل به.

نعود إلى العمليق أو التُبَّع حسان بن أسعد اليماني ملك طسم، فقد خرج وهو «ميت الحواس والقلب» لا رحمة عنده.

فمع الهزيع الأخير من الليل المظلم الدامس وبعد أن قام جيش حسان اليماني بعملية إخفاء وتمويه هائلة، عندما بلغه حدَّة إبصار زرقاء اليمامة، فقد أمر جنوده بالتخفي من الرأس حتى أخمص القدمين

بأفرع الأشجار وغصونها من دون بذل أي محاولة لقرع الطبول كعادتهم عند الحرب ولم يبذل أي محاولة لبذل جلبة أو أصوات.

وبَيْنما كانت زرقاء اليمامة تجلس في أعلى أبراج المدينة. صرخت بأعلى صوتها: يا جديس يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير. يا جديس يا قوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير.

ولكن القوم لم يُلقوا بالاً لحديثها وخاصة عندما قالت أن شجراً يمشي إليكم، وقد ميزتهم من تحت الشجر وعرفت أنهم يتخفون في غصون الأشجار.

اقترب التبع حسان اليماني وجنده ومعه وزيره حنضلة، وعندما اقتربوا من ديار جديس، تعمدوا استدراج الكلاب، كلاب جديس بالاحتيال عليها فرموا اللحم المسموم لها. كي لا تنبح، حالما قاربوا مضارب أعدائهم وفرائسهم ليلاً، مما ساعدهم على اقتناص النصر بأقل الخسائر.

وبالصمت الرهيب الذي كان يلف المكان، أطبق حسان على الجديسيين من العرب العاربة وهم داخل مضاجعهم ليطحنهم جيشه الزاحف كمثل غابات وحشية مطبقة من كل صوب على الأسوار والبوابات والدور والمضارب، وسيوف جند الملك حسان تعمل في الرقاب النائمة، مُشعلين النيران والحرائق أينما حلوا.

وكانت الفاجعة التي حلَّت بقبائل جديس، ليُذبحوا رجالاً ونساءً وأطفالاً داخل مضجعهم ليلاً غيلة على ذلك النحو الغادر من جانب ذلك الملك المتجبِّر وجيشه الزاحف الذي طحنهم طحنًا على مرأى من أميرتهم «زرقاء اليمامة» التي أعيتها كل حيلة في تبصيرهم، فهي الوحيدة التي اعتلت رأس فرسانها وحرسها الخاص، وتصدت للحرب والقتال من جهة، ومن جهة أخرى صارخة في بقية رجال جديس ومحاربيها النائمين والغافلين، يا جديس.. يا قوم.

ولقد نفذت أسهم الحميريين، وعملت سيوفهم في رقابهم، عبر تلك المذبحة الليلية التي عمت كالطاعون، ساحات مدينة اليمامة وباحاتها ومضاربها ومنازلها وخيامها دون رحمة أو شفقة.

وعلى الرغم من كل محاولات زرقاء اليمامة وقلة لا تذكر من فرسانها ووصيفاتها من النساء، في التصدي والمقاومة لجيش الملك حسن القادم القوي، إلاَّ أن الهزيمة كانت من نصيبهم.

فما تجدي مجرد كتيبة في مواجهة جيشٍ غازٍ متكامل البنيان؟ إلا أن مقاومة زرقاء اليمامة ورجالها أفزعت التُّبَّع حسان ذاته في تلك الليلة الحالكة الظلمة، لدرجة دفعت به إلى البحث بنفسه عن مصدر تلك المقاومة الخطرة، على الرغم من كل ما اتخذه من احتياطات سريَّة، إلى أن تصدى لها بنفسه وصولاً إلى أن أوقعها جريحةً تنزف وهي لا تزال تقذفه بأشنع سبابها، تحت سنابك خيله المدججة.

ولكم كانت دهشة الملك الغازي حسان اليماني الكبرى وهو يرنو إليها من أعلى هامة جواده، ليتعرف عليها وهي في لباس الحرب، امرأة؟!

قالت زرقاء - أجل امرأة، أيها المتآمر، المدجج بالليل والأشجار، ضحك التبع حسان طويلاً إلى أن استلقى على قفاه، **قائلاً**: لم أضحك منذ زمن.

وحين حاول جنود الأعداء الاعتداء على زرقاء اليمامة والإجهاز عليها منعهم بنفسه: دعوها فهي حليلتي.

فما كان من زرقاء اليمامة الفتاة التي ضحت بنفسها من أجل أهلها إلا أن زحفت وهي مصابة إلى أن قاربته، بعد أن راقت في عينيه نظرًا إلى جمالها الباهر وذكائها المتوقد، وذلك التحدي البديع الذي يغطي ملامحها وخلجاتها.

حتى إذا ما حاول التقرب منها، طعنته بخنجرها إلى حد جرحه ونزف دمه. عندئذ هجم حراس حسان وعملت سيوفهم في جسدها إلى أن ماتت زرقاء اليمامة دفاعًا على أهلها ووطنها، وعلى تراب مدينتها اليمامة ترويه بدمائها.

وجاء انتصار حسان اليماني الساحق على زرقاء اليمامة والذي كان مغلفًا بالخديعة والغدر، وبالتالي كسر شوكة جديس على طول جزيرة العرب.

وبذلك كانت زرقاء اليمامة نموذجًا لفداء الفتاة العربية دفاعًا عن أهلها وعشيرتها.



ابنتي تتزوج

عبد المنعم الهاشمي

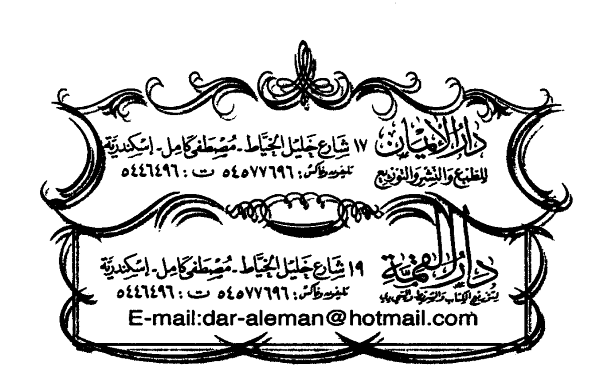
دار الإيمان
إسكندرية



رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1



ابنتي تتزوج

الحديثُ عن زواج البنت سواء أكانت ابنتي أو ابنتكَ يتطلبُ أن تتصفحَ مواقف الزواج الكريمةِ في حياة العربِ والمسلمين، وقد تبيَّن لنا من قصة أُمِّ زرع[1] رأيُ المرأةِ في زوجها وما الذي تحبُّه وترضاه وما الذي تكرهه وتتحاشاهُ في خلق زوجها.

وفي أخبار العربِ وتراثهم مثلٌ يقول: «قبَّحَ الله جمالاً لا نفعَ له»، وهذا المثل لم يأت من فراغٍ فهو يتصل باختيارِ الزوج ومعايير هذا الاختيار أهو الجمالُ أم القوَّةَ أمِ المالُ أم العقلُ والحكمةُ وكذلك بالنسبةِ للمرأة، **فقد ذكر:** أنَّ عثمة بنتَ ابن مطرودِ العَجَليَّةَ كانت ذاتَ عقلٍ ورأيٍ مُستَمع في قومها، وكان لها أختٌ يُقال لها «خَوْد»، وكانت «خود» هذه ذات جمالٍ ودلالٍ وعقلٍ، وقد جاء لخطبةِ «خود» هذه سبعةُ إخوة من قبيلة الأزد فجاء السَّبعة إلى أبيها، وعليهم الحللُ اليمانيةُ الجميلةُ، وتحتهم خيولٌ فارهةٌ جيِّدةُ السيرِ والجري نشيطةٌ خفيفةٌ مما يدلُ على غناهم وفروسيتهم.

فلما جاءوا إلى أبيها قالوا: نحنُ بنو مالكِ بنِ عُفَيلَةَ.

فقال لهم: أنزلوا على الماءِ - تكريمًا لهم، وأعطاهم فرصةً للراحة بعد السفر - فنزلوا ليلتهم فاستراحوا ثم أصبحوا غادين في

---

(١) انظر: قصة «أم زرع في المدينة» في هذه السلسلة.

الحُللِ والهيئةِ ومعهم حاضنةٌ مشـهورةٌ لهم كاهنةٌ يقال لها: الشعثاء. فمروا بفناء دارِ «خـود» ينظرون إليها، وكلُّهم وسيمٌ جـميلٌ، عظيمٌ قسيمٌ، مهيبٌ، وخرج أبوها فرحَّب بهم وجلسوا إليه.

فقـالوا: بلغنا أنَّ لك بنتًـا، ونحن كما ترى شـبابٌ، وكلُّنا يمنعُ الجانبَ، ويمنحُ الراغبُ.

فقال أبوها: كلكُم خيارٌ، فاقيموا حتى نرى رأينا، وننظرَ في الأمرِ.

وكان من عـادةِ العربِ في الجـاهليةِ أنْ يُشـاوروا فدخل الرَّجلُ على ابنته، **فقـال:** ما ترين يا ابنتـي؟ فقد أتاكِ هؤلاءِ القـومُ خاطبينَ يطلبُ كلَّ واحدِ الزواجَ منك.

فـأجـابت «خـود» بـفـصـاحـةٍ وبلاغـةٍ مـدهشـةٍ قـائلـة لأبيـهـا: يا أبي، زوِّجني على قَدْري، ولا تُشْطِطْ في مـهري؛ فإنَّ تخطئني أحـلامُهم فلا تخطئني أجسامهم. لعلي أُصيب ولدًا، وأُكثرُ عددًا.

فخرج أبوها، بعـد أنْ سمعَ رأيها، وفهم وصيَّتـها، وبدأ يعمل بها، **فقال لهم:** أخبروني عن أفضلكم.

فـأجابت حـاضنـتُهم وربيبتهمُ الشعـثاءُ قـائلةً: اسمع أُخبرك عنهم: هم إخوةٌ، وكلُّهم أسـوةٌ (أي: قدوة). أمَّا الكبـيرَ فمـالك، جريءٌ فاتكٌ، يُتـعبُ السنابكَ (من كثرة ركـوبةِ الخيلَ دليل على فروسيـته) واستطردت قائلةً: ويستصغرُ المهالكِ.

وأمَّا الذي يليه فالعَمْرو: بَحرٌ غَمرٌ (شـديد الكرم)، يقصرُ دونهَ الفخرُ نهدٌ صقرٌ (كريم قوي كالأسد).

وأمَّا الذي يليه فعلقمة: شديدُ المعـجمـةِ، منيعُ المشتـمةِ، قليلُ الكلامِ والثرثرةِ.

وأمَّا الذي يليه فعاصم: سيدٌ ناعمٌ، جَلَدٌ صارمٌ، أبيٌّ حازمٌ جيشهُ غانمٌ، وجارهُ سالمٌ.

وأمَّا الذي يليه فثواب: سريعُ الجـوابِ، عتـيدُ الصـوابِ، كريمُ النِّصابِ (أي: كريم الأصلِ)؛ كليثِ الغابِ.

وأمَّا الذي يليه فمُدرك: بذولٌ لما يَملك، عزوبٌ بعيـدُ عمَّا يُتركُ يُغني ويُهلكُ.

وأمَّـا الذي يليـه فـجندل: لِقـرنهِ مُـجـدِّلٌ (أي: يصـرع أقـرانهَ ويغلبهم)، مقلٌّ لما يجملُ، يُعطي ويبذلُ، وعن عدوه لا يَجْبُنَ.

سَمـعت «جود» كلَّ هذه الصـفاتِ عن السَّـبعـةِ الإخوةِ الذين جاءوا لخـطبتـها وقررت اسـتشـارة أختـها «عـثمـة بنت ابن مطرود البجلية»، وكانت عثمة ذاتَ عقلٍ ورأيٍ مُستمعٍ في قومها ـ فشاورت أختها عثمة فيهم، **فقالت لها أختها عثمة:** ترى الفتيان كالنَّخل، «وما يُدريك ما الدخل»[1].

(١) هذه العبارة تفيد ألا يغتر الإنسان بالظاهر.

اسمعي مني كلمة: إنَّ شَرَّ الغريبةِ يُعْلَنْ، وخيرها يُدفن، تزوَّجي في قومك، ولا تغرُرك الأجسامُ.

بهذه النصيحة نصحتها أختها وقالت لها لا تتزوجي الغريبَ، ولا تغرك هذه المظاهرةُ والأجسامُ، فإنَّ الغريبة مسلطٌ عليها الضوءُ، فإن أخطأت أو فعلت شيئًا مُشينًا فإنَّه يُعلنُ ويُشاع في حين أن قومها يحفظونها ويتسترون عليها لأنَّها ابنتهُم قبل أن تكونَ زوجةً لأحدِ أبنائهم، وقالت معللةً سببَ نصيحتها هذه بأنَّ خيرهَا وما تفعله من خير يُدفن ويتوارى ولا يُعلن عند الأغراب، أمَّا في قومها فالأمر عكس ذلك تمامًا.

ولكن «خود» لم تسمع نصيحةَ أختَها، وبعثت إلى أبيها: أنْ زوجني مُدركا - والذي قالت عنه الشعثاء تصفه: «بَزولُ لما يملكُ، عزوب بعيد عمَّا يتركُ، يُغني ويُهلكَ».

وافق الأب وأرسلَ إلى مدركَ، واتفقا على مهر مائة ناقة ورُعاتها، وجاء مدركُ وأهله فحملوها، وزُفت زفافًا سعيدًا، وأصبحت زوجًا لمدرك سعيدةً بما اختارت.

وبعد فترةٍ وجيزةٍ من زفافها على مدرك وبينما كانت تجلسُ في دارهِ وبين أهلهِ وعشيرتهِ هجم عليهم فوارسُ من بني مالك بن كنانة، ودار قتالٌ عنيفٌ بينهما، انكشف عنها زوجها وأخوتهُ

وعشيرتهُ وانهزموا جميعًا هزيمةً نكراءَ، فقتلوا منهم من قُتل وأخذوا النساءَ سبايا، وأخذوا «خود» سبيةً فيمن سَبَوْا من النساءِ.

وبينما هي تسير أسيرةً ذليلةً، بكت بكاءً شديدًا، وندمت ندمًا عظيمًا، فظنَّ فرسانُ بني مالك أنَّها تبكي على فراق زوجها، **فسألوها:** ما يبكيك؟ أعلى فراقِ زوجكِ؟.

قالت: «قبحَ اللهُ جمالاً لا نفعَ معهُ» - وصار مثلاً من أمثال العرب[1]. ثم أضافت قائلةً: إنما أبكي على عصياني أختي في قولها: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل» ثم أخبرتهم كيف خطبوها، وكيف تزوجها مدرك. فقال لها رجل منهم، أسودُ اللونِ، أفوهُ عظيمُ الفمِ، مضطربُ الخلقِ - أترضين بي على أنْ أحميك وأمنعك من ذئابِ العرب؟ **فقالت لأصحابه:** أكذلك هو؟ **قالوا:** نعم، إنَّه مع ما ترينَ يحمي زوجه، وتستطيع أن تعيشَ في كنفهِ في أمانٍ واطمئنانٍ لأنَّ القبيلة كلَّها تخشاه وتتقيه بل كلُّ القبائل.

فقالت: هذا أجملُ جمالٍ وأكملُ كمالٍ.

ففهموا أنَّها رضيت به زوجًا - **فلما سألوها:** هل ترضين به زوجًا؟ **فقالت:** قد رضيت به زوجًا، فزوجوها منه، وعاشت في كنفه لم تسب ولم تُهن ولم تذل.

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١-٩٠).

وليس معنى هذا أَن الجمالَ شيءٌ ثانويٌ في زواج المسلم للمسلمة، لأنَّ القبحَ في قصة «خود» كان في عجزِ الزوجَ عن حماية زوجهِ والدفاع عنها.

ومنذ القدمِ تمدح الزوج في زوجها صفاتٍ كثيرةً منها الكرمُ والشجاعةُ والحلمُ، وقد عبَّرت عن هذا امرأةٌ من بني زياد بن الحارث فقالت:

فلا تأمروني بالتزَّوّج إنني ❁ أُريدَ كرامَ النَّاس أو أبتَّلُ

أُريد فتى لا يملأُ الهولُ صدرهُ ❁ يريح عليه حلمُه حين يجهلُ

وقالت أخرى تعبِّر عن الصفاتِ التي تريدها في الرجلَ، فقالت:

أُحبُ الفتى يَنْفِي الفواحشَ سمعُه ❁ كأنَّ به عن كل فاحشةٍ وَقْرَا

سليم دواعي الصدر لا باسطًا أذى ❁ ولا مانعًا خيرًا ولا قائلاً هُجْرَا

والمرأة لا تريد رجلاً بائرًا حائرًا، لا يأتمر لرشد، ولا يُطيع مرشدًا، وإنما تريد رجُلاً لينًا عفيفًا مسلمًا، يصدرُ الأمورَ مصادرها. وكما ترغب المرأةُ وتحبُّ في زوجها وشريكِ حياتها صفاتٍ طيبةً كالتي جاءت على لسان هند في حديث أم زرع[1] عن لين الجانب، ورقة القلب. وقالت: «فالريح ريح زَرْنب، والمسُّ مَسُّ أرنب، أغلبُه والناس يَغلبُ».

---

(١) انظر: «أم زرع في المدينة» في هذه السلسلة.

ومن العجيبِ أنْ يكونَ الجمالُ ـ جمال المرأة ـ عند بعض الأزواج شنيعًا لسوءِ خُلقها، فيحتمله الزوجُ ويصبر عليه شغفًا بها، وقد رُويَ أنَّ في نساءِ تميم جمالاً، وهن من قبيلة «أبي بكر الصديق ﷺ»، وكان لهن حظوةٌ عند أزواجهن على سوء خلق بعضهنَّ ومنهنَّ أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي، فقد تزوجت الحسنَ بن عليٍّ بنِ أبي طالب ﷺ، وكانت قد حملت منه وولدت وهي مُصارمةٌ له في خصامٍ لا تكلمه.

ومثلها أختُها عائشةُ بنت طلحةَ، وكانت فريدة الجمالِ كأمثالها من بنات قومها، فقد تزوَّجها «مصعب بن الزبير» وأتاها في يوم وهي نائمة متضجعة ومعه ثماني حبَّات من اللؤلؤ فيمتها آلاف الدنانير، فنثر اللؤلؤ في حجرها، **فقالت:** نومتي كانت أحبَّ إليَّ من هذا اللؤلؤ[1].

ومثل هاتين ابنة أخيها «أم سلمة بنت محمد بن طلحة التيمي» فقد تزوَّجت «عبد بن الحسن بن علي بن أبي طالب» وكانت تقسو عليه قسوةً عظيمةً، وتُغلظ له، وكان يسكت عنها ولا يخالفها، فرأى يومًا منها طيبَ نفسٍ فأراد أن يشكو إليها قسوتها. **فقال لها:** يا بنت محمدٍ قد أُحْرق قلبي والله . . . وقبل أن يتم كلامه، حدّدت فيه نظرَها، وجمعت وجهها، **وقالت له:** ماذا أحرق قلبك؟ فخاف

(١) «الأغاني» (٢١/ ١١٤).

فلم يقدر على أن يقــول لها: سوءُ خُلقِك، **فقال لها:** حبّ أبي بكر الصديق، فأمسكت عنه[1].

وكمـا أنَّ للمرأةِ الجميلة دلالاً، فـفي الرجل الجميل رغـبةٌ عند المرأةِ، فـالمرأة تكره مـن الرجلِ مـا يكره هو منهـا، فكمـا يحبُّ أن تكونَ امرأته جميلةً، تحبُّ هي كذلك أن يكون زوجها على قدرٍ من الوسامة والجمال، فالجمـالُ كالشباب كلاهما يثير الجذب في الجنسين.

وقد اشتهـر شباب في صدر الإسلامِ بجمالهم، فـمنهم «محمد بن ظفر بن عـمير» الملقب بالمقنَّع الكـندي، و«أبو زيد بن حرملة بن المنذر الطائي» و«دحيـة الكلبي» صاحب الرسـول ﷺ، و«وضاح اليـمن»، فقـد رُويَ أنَّهم كانوا إذا دخلوا المدينةَ يَسـترُون وجـوههم خوفًا من العين وحذرًا على أنفسهم من النساء.

وقد رُويَ عن ابن عـباس رضي الله عنهما أنَّ «دحيةَ الكلبيَّ» كـان إذا قدمَ المدينة لم تبق مُعْـصِرٌ والمعصر هي البنتُ أوَّل بلوغـها ـ إلا خرجت تنظر إليه[2]. ولربما كان ذلك أنَّ «دحـية الكلبي» كان يأتي جـبريل عليه السلام على هيئته، فكان مشهوراً بذلك في عصر النبي ﷺ.

ومن هؤلاء أيضًا: «نصر بن حجاج» الذي فتن نساءَ المدنية بجمالهِ حتى ترنمت (تغنت) بحسنهِ امرأةٌ بشعر سمعه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه

(١) «المردفات من قريش» للمدائني (ص٧٧).
(٢) «عيون الأخبار» (٤/ ١١).

وهو يطوفُ في سكة من سكك المدينةِ، فجزَّ شَعْرَهُ، ثمَّ نفاه إلى البصرة، وأقطعه مالاً ودارًا.

ومما رُوِيَ أيضًا: أنَّ مُحَدِّثًا وفقيها يدعي «أبو الحسن علي بن محمد البغدادي» كان جميلاً صبيحَ الوجه، وكان له مجلس يحضره الرجالُ والنساءُ، فكان إذا جلس يُحدِّثُ ويعظُ وضعَ على وجهه برقعًا ليُخفيَ حسنَ وجهه[1].

وكما أنَّ الجمالَ في الجنسين محبوبٌ، فإنَّ القبحُ مكروهٌ في الجنسين أيضًا وهو يُباعد بينهما، فالمرأة تكرهُ الرجلَ القبيحَ وتنفر منه، وخاصةً إذا كانت شابةً، ويُروى عن عمر بن الخطاب قوله: **«لا تُكرهوا فتياتكُمْ على الرَّجلِ القبيح فإنهنَّ يحببن ما تحبون»**.

وقد أُكْرِهَتْ فتاتانِ من بني جعفر بن كلاب على الزواجِ من أخويْنِ قبيحيْنِ، دفعا فيهما مهرًا غاليًا، **فقالت إحداهن:**

ألا يا ابنةَ الأخيارِ من آلِ جعفرٍ ▫▪▫ لقد ساقنا من حينا هجمتاها
فأسودُ مثلُ الهرِّ لا دَرَّ درّه ▫▪▫ وآخرُ مثلُ القردِ، لا حبّذاهما
يَشنيانِ وجهَ الأرضَ إنْ مَشيا بها ▫▪▫ ونخزى إذا ما قيل: منْ قَيْماهما

ولهذا الجانب طرائف في الأدب وأخباره منها: أنَّ رجلاً يُدعى «أبو العيناء» خطب امرأة فردته لقبحه، مع جليل مكانته في الأدب

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٢٢).

والبلاغة، فكتب إليها يقول:

فإن تنفري من قبح وجهي فإنني ... أريبٌ أديبٌ، لا غبيٌّ ولا فَدْمُ

فأجابته قائلة: ليس لديوانِ الرسائلِ أُريدُك[1].

ولكنَّ الإسلامَ وشرعَهُ الحنيفَ وضع معيارًا للكفاءة في الزواج يختلف عن كل هذه الأحداث والقصص فالآية الكريمة تقول: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

وعلى هذا الأساس وضع النبي ﷺ معيارًا واضحًا، ومقياسًا عظيمًا شريفًا للزواج عندما قال: «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض**»[2].

ولذلك فقد نزل الناسُ على حكم الرسول ﷺ، التزامًا بطاعته، فقد رُويَ أنَّ النبي أمر رجلاً من الأنصار أن يزوِّج ابنته من رجل يُدعى «جليبيب»، وكانت فيه دمامة وقصر، وكأنَّ الأنصاريَّ وامرأته كرها ذلك، فسمعت ابنتهما بما أراد الرسول ﷺ فقالت لهما: رضيت وسلَّمت لما يرضى به رسولُ الله ﷺ[3].

وفي ذلك يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**﴾ (سورة لأحزاب: ٣٦).

---

(١) «نهاية الأرب» (٢١/ ٤).

(٢) أخرجه الترمذي.

(٣) انظر: «الاستيعاب» (٤/ ٢٧١).

وذكر أنَّ هذه الآية لما نزلت وافق عبد الله بن جحش وأهله على زواج أخته زينب من زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ . وقد نزل على هذا الحكم العظيمِ بنو ليث - وهم فرعٌ من كنانةَ حينما ذهب إليهم بلال مؤذن الرسول ﷺ يخطب إليهم لنفسه ولأخيه **فقال:** أنا بلال، وهذا أخي . . . كُنَّا ضالينِ فهدانا الله، وكُنَّا عبدينِ فاعتقنا الله، وكُنَّا فقيرينِ فأغنانا الله؛ فإن تزوجونا؛ فالحمد لله، وإن تردُّونا فالمستعانُ الله!

قالوا: نعم وكرامة، فزوجوهما.

زواج الصحابة وبناتهن:

كان علي بن أبي طالب قد عزل بناته لولد جعفر بين أبي طالب، فلقيه عمرُ **فقال:** يا أبا الحسنِ، زوجني ابنتك أمُ كلثوم ابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، **قال:** قد حبستُها لابن جعفر! **قال:** إنَّه والله ما على الأرضِ أحدُ يرضيك من صحبتها بما أرضيك به، فزوجني يا أبا الحسن. **قال:** قد زوجتكها يا أمير المومنين!

فأقبل عمر فجلس في الروضة بين القبر والمنبر، واجتمع إليه المهاجرون والأنصار، فقال: زفوني!

قالوا: بِمنْ يا أمير المؤمنين؟

قال: بأمِّ كلثوم بنت علي، فإنيِّ سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كلُ سببٍ ونسبٍ يتقطعُ يومَ القيامةِ إلاَّ سببي ونسبي»!**

وقد تقدمت لي صُحبةٌ، أحببت أن يكونَ لي معها سببٌ (نسب يوصلني برسول الله ﷺ».

فولدت له أمَّ كلثوم زيدَ بن عمر، ورقية بنت عمر.

وزيدُ بنُ عمرَ هذا هو الذي لطم سَمُرَة بن جندي عند معاوية إذ نال من الإمام علي فيما يقال[1].

أمير المؤمنين يتواضع:

خطب سلمانُ الفارسيُّ إلى عمر ابنته، فوعده بها، فشقَّ ذلك على عبد الله بن عمر، فلقي عمرو بن العاص فشكا ذلك له، **فقال له:** فأكفيكهُ، أي: اتولى صرفه عن هذا الزواج بطريقتي الخاصة - فلقي سلمانَ، **فقال له:** هينئًا لك يا أبا عبد الله، أمير المؤمنين يتواضع لله عزَّ وجلَّ في تزويجك ابنته! فغضب سلمانُ **وقال:** والله لا تزوجت إليه أبدًا.

هند وزواجها من أبي سفيان:

جاءت قصة زواجِ هند بنت عُتبة من أبي سفيان وقد حملتْ من المعاني المفيدة الكثيرَ، فقد اختار عُتبةُ بنُ ربيعةَ والدُ هند - اختارَ أبا سفيان زوجًا لابنته، فقال لهند وهي فتاةٌ لم تصبح عروسًا بعد: إنَّه قد خطبك رجلانِ من قومكِ، ولست مسميًّا لك واحدًا منهما حتي أصفه لك.

---

(١) «العقد الفريد».

أمَّا الأوَّلُ - ففي الشـرفِ الصميمِ، والحسبِ الكريمِ، تخالين به هوجًا من غفلته، وذلك إسجاحٌ من شيمته، حَسَنُ الصحابةِ، حسنُ الإجابةِ، إن تابعـته تابعك، وإن ملتِ كان معك، تقـضين عليه في ماله، وتكتفين برأيك في ضعفهِ.

أمَّا الآخر - ففي الحسبِ الحسيبِ، والرأيِ الأريبِ، بَدْرُ أرومتهِ وعزُّ عشيرتـه، يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن اتبعوه أسهلَ بهم، وإن جانبـوه توعَّر بهم (أي: إنْ عَصَـوْهُ قسا عـليهم)، شديد الغـيرة، سريع الطيرة شديد حجاب القُبَّة[1]. إن جاعَ فغير مبرور، وإن توزع فغيرُ مقهور.

ثم أطرق عتبة قال: قد بينت لك حالَهما.

قالت هند: أمَّا الأول فسيدٌ مضياعٌ لكريمته، مُواتٍ لها فيما عسى إن لم يعصم أن تلينَ بعد إبائها، وتضـيع تحت جفائها. إن جاءت له بولدٍ أحقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، أطوِ ذكرَ هذا عني فلا تُسمه لي.

أمَّا الآخـر فبعـل الحرَّة الكريمة، إنِّي لأخلاقـه مُحـبةٌ، وإني له موافقـةٌ، وإنِّي لآخذ بأدب البعل مع لزومي قُبَّـتي وقلة تَلَفُّتي، وإنَّ السليل بيني وبينه لحـريٌّ أن يكونَ المدافعَ عن حريمِ عشـيرتهِ، الزائد عن كتيبـتها، والمحامي عن حقيقـتها، الزائن لأرومتها، غير مـعتمدٍ على غيرِهِ، ولا ضعيف ولا جبان عند وقوع المصائب.

---

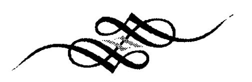
(١) أي: أنه حريص على ستر نسائه.

قال الأب: ذلك أبو سفيان بن حرب.

فقالت هند: فزوِّجه ولا تلقني إليه إلقاء المتسلس السلس، ولا تَسُمْهُ بسوم المراطس الضرس، استخر الله في السماء، يخر لك بعلمهِ القضاء.

هذه هي صفاتُ أبي سفيان، والدِ معاوية، وسيدِ قريش، فقد كان في الجاهلية شريفًا، ولما أسلم جعل له رسول الله ﷺ ما يحب من الفخر، حين طلب منه ذلك العباس، فقال يوم فتحِ مكةَ وإسلام أبي سفيان: **«من دخلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن»**.

وهذه القصص والمشاهد هي صورة عن اختيار الزوج وزوجه كل منهما للآخر وقد تجيب عن سؤال للأم والأب يقول: ابنتي تتزوج؟ فما العمل؟ أو للبنات - عندما يقبلن على الزواج، فيسألن أنفسهن - من يكون زوجي؟ وكيف اختارهُ؟.





زبيدة في مكة

عبد المنعم الهاشمي





رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

زبيدة في مكة

الأميرةُ بنتُ الأمراء:

زبيدةُ بنتُ جعفر المنصور زوج هارون الرشيد كانت: «أعظمَ نساءِ عصرِها دينًا وأصلاً وجمالاً وصيانةً ومعروفًا»[1].

وزبيدةُ سيدةٌ جليلةٌ كريمةُ اليدِ، ذات يدٍ طُولى في الحضارة والعمران والتاريخ والعطف على الأُدباءِ والشعراءِ والأطباءِ، ومن ذواتِ العقلِ والرأي والفصاحةِ والبلاغةِ.

وزبيدةُ هي أميرةٌ بنتُ أميرٍ أبوها أبو جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، هاشمية من ال بيت رسول الله ﷺ.

وتُعَدّ زبيدةُ من النساءِ ذواتِ الحسبِ والنسبِ لمالها من محارمَ وأقاربَ على درجةٍ عظيمةٍ من الحسبِ والمالِ والجمالِ، فأبوها جعفر المنصور، وجدُّها المنصور، وأخوها السفَّاح، وزوجُها هارون الرشيد، وعمُّها المهديُّ ابن المنصور أمير المؤمنين، وابنها الأمين بن هارون الرشيد، وأبناء زوجها جميعًا أمراء، وهم المأمون والمعتصم، والواثق والمتوكل[2].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣١٤).

(٢) «صبح الأعشى» (١/ ٤٤٠).

وزوجُها الرشيـد خليفةٌ سلّم عليه بالخلافة عـمُّه وعمُّ أبيه وعم جدِّه، سلم عليه سليـمان بن المنصور، والعباس بن محـمد عم أبيه المهدي، وعبد الصمد بن عليٍّ عمٍّ جده أبي جعفر المنصور.

كان اسمها أمَةُ العزيز، وكان جدها المنصور (أبو جعفر المنصور) يحبها حبًّا شديدًا، وكانت شديدةَ التعلُّقِ بهِ، فكان يلاعبها ويداعبها كثيرًا فسماها «زُبيدة» لبضاضتها ونضارتها، ففي طفولتها كانت بَضَّةً بيضاءَ مملوءةَ الجسدِ، تبدو عليها النضارةُ والجمال.

قضت زبيدةُ بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور طفولتها في قصرِ «الرصافة» الذي بناه جدُّها المنصور لعمِّها المهدي[1].

الزواج المبارك:

كبرت زبيدةُ بنت جعفر «أمَةُ العزيز» كما كان يحلو لبعضهم أن يُطلقَ عليها، وأصبحت فتاةً جميلةً، إذا وقع بصر شاب عليها أخذته من شدَّةِ جمالهـا ونضارتها، وكان ابن عمها هارون الرشيـد يلمحها أحيانًا عندما يزور قـصر الرصافة وكثيرًا مـا ذهبت بصحبة بنات بني العباس الهاشمـيات إلى قصر الخلد في مناسبة عائليـة تجمع الفتيات والفتـيان أبناءَ العمومـة، وكان هارونُ الرشيـدُ شابًا أبيضَ، طويلاً، جميلاً، مليحًا، فصيحًا، تتـمناه كلُّ فتياتِ البيت الهاشميِّ العباسيِّ العـريق كـان يحب العـلم، والأدب، ويحب أهلَ العلـم، ويعظم حُرماتِ الإسـلامِ، مشهود له بالإسـتقامة، وذكـر المؤرخون أنَّه كان يُصلِّي كلَّ يوم مئة ركعة إلى أن فارق الحياةَ[2].

---

(١) «تاريخ الطبري» عام ١٥١ هـ (جـ٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١٠/ ٢١٤).

وكان هارون الرشيد إذا حجَّ أحَجَّ معه مئةً من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج ـ بسبب جـهد أو غزوة، أحجَّ في كل سنة ثلاث مـئة رجلٍ بالنفقةِ الكاملةِ، والكسوةِ الظاهرةِ.

وكان هارونُ الرشـيدُ شابًا فـتيًّا حـينما فاتحـه أبوه الخليفة أمـير المومنين المهـديُّ في الزواج، فـسـأل هارون أباه وقـد ارتجف قلبُـه، وخارت قـواه خوفًا من أن يختـار فتاةً غيـر فتاتهِ التي اختـارها قلبُه وضمها فؤاده وأصـبحت حلمَهُ الذي يحلم به كلَّ يوم، **فسأله قائلاً:** ومن هي يا أبي؟ **فقال المهدي:** لقد اخترت لك بنت عمك زبيدةُ.

وكاد هارون يطير فرحًا عندما سمع اسم زبيدة فوافق على الفور واستعد القصرُ العباسيُّ كلُّه الذي بقصر الخلدِ على ضفاف نهرِ دجلةَ في العراق.

وفي ذي الحجـة سنة ١٦٥ هـ أُقيـمت الزيناتُ في قصـر الخلدِ وانْخرَطَ الناسُ في مواكبِ الفـرحِ والسرورِ، سعداءَ لسعـادةِ أميرهم الشابِ هارون الرشيد وأعـرس هارونُ الرشيـد بعروسهِ زبـيدة التي حـوّلَتْ قصـر الخلد إلى لؤلؤةٍ مضـيئـةٍ من الأضواء والألوان وقـد احتشد الناس في قـصر الخلد لمشاركةِ أميرهِم الشاب فـرحَتَه فجاءوا من كلِّ البلاد وحشدوا من الآفاق ووزع عليهم الأميرُ الأموالَ ولم يُر في الإسلامِ مثلُ هـذا العرسِ الضخم، وتحدَّث المؤرخون عـن النفقةِ في هذا اليوم من بيتِ مالِ أمير المؤمنين المهديِّ خـاصةً وكانت كبيرةً سوى ما أنفقه هارونُ من مالِهِ الخاص.

مع هارون الرشيد:

أحبت زبيدةُ زوجَهـا هارونَ الرشيدَ حبًّا عظيمًـا لما كان عليه من حسنِ الخُلق وجـمالِ الخَلْقِ، وكـرمِ اليدِ ورجاحـةِ العقلِ، فـجعلت تهيئ له كلَّ العواملِ التي تفتقدها واصلةً به إلى عرش الخلافة.

ولم يمض عـامٌ على هذه الأيام الجمـيلة وهذا الزواج السـعيـد المبارك حـتى ولدت له مـحمدًا الأمين، ولـما ولدت محمـدًا الأمين تسابق الشعراءُ إلى مدحه والترحيب به، حتى قال أحدهم:

لله درُّك يا عـقـيـلةَ جـعـفـر ... ماذا ولدت من النَّدى والسؤدد
إن الخـلافـةَ قـد تبـيَّن نورُها ... للناظرين على جبينِ محمَّدِ

فأمر الرشيدُ للشاعرِ بثلاثة آلاف دينارٍ، وأمرت زبيدةُ أن يُحشى فوهُ جوهرًا فكانت قيمته عشر آلاف دينار.

وقد تمسكت زبيدةُ بدينها الحنيف أشدَّ التمسك، حتى قيل إنَّه كان لها مائةُ جـاريةٍ يحفظن القرآن، ولكلٍّ واحدةٍ وِرْدُ عشـر القرآن، وكان القرآن يُسْمَعُ في قصرها كدويِّ النحلِ من كثرة قراءةِ القرآنِ وتلاوتِه[1].

ابني خليفة:

كان لهارون الرشيد ابنٌ آخرُ غيـر محمد الأمين ابن زبيدة وكان اسمه عبد الله المأمون، وكان الرشيد يحبهما حبًّا متساويًا، فيما كانت زبيدةُ تودُّ أن يكون ابنُهـا الخليفةَ القـادمَ لبني العباس، ولذلك فـقد كلَّفت الإمام الكسـائي عالم القراءات وأحـد قرَّاء القران السبـعةَ بأنْ يُعلِّم ويؤدِّب ابنها الأمين وكذلك كلَّفه هارون الرشيد بتعليم وتأديب

---

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٢، ص٣١٤) ترجمة رقم ٢٤٢.

أخيه عبد الله المأمون، وكان الكسائي يُشدِّدُ عليهما في الأدبِ ويأخذ بهما أخذًا شديدًا وبخاصة محمدًا، فأرسلت إليه جاريته وكانت اسمها خالصة، **فقالت جارية زبيدةُ:**

يا كسائي إن السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد، فإنَّه ثمرة فؤادي، وقرَّة عيني، وأنا أرقُّ عليه رِّقةً شديدة.

فقال الكسائي لخالصة جارية زبيدة: إن محمدًا مرشَّحٌ للخلافة بعد أبيه هارون، ولا يجوز التقصير في تأديبه.

فقالت خالصة: إنَّ لرقَّة السيِّدة سببًا أنا مُخْبِرتُك به.

إنها في الليلة التي ولدته أُرِيَتْ (أو رأت) في منامها كأن أربع نسوةٍ أقبلن إليه، فأحطن به عن يمينه وشماله وأمامه وورائه.

فقالت التي بين يديه: مَلكٌ قليلُ العُمر، ضيقُ الصَّدر، عظيمُ الكبر، واهي الأمر، كثيرُ الوزر، شديدُ الغَدْر.

وقالت التي من ورائهِ: مَلِكٌ قَصَّاف، مبذِّرٌ متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف.

وقالت التي عن يمينهِ: ملكٌ ضخم، قليل الحِلم، كثير الذنب، قطوعٌ للرحم.

وقالت التي على يسارهِ: ملكٍ غدَّار، كثير العثار.

ثم بكت خالصةُ جاريةُ زبيدةَ من هذه الرؤيا التي أفزعت سيدتها بما جاء فيها عن ابنها التي ترجو أن يكون خليفةً للمسلمين بعد أبيه هارون الرشيد.

وقالت للكسائي: يا كسائي، وهل يُغني الحذر؟[1].

وذات يوم سمعت زبيدةُ أنَّ الرشيد أعطى البيعةَ لابنه عبد الله المأمون ليصبحَ وليًّا لعهده ولم يُعطه لابنه محمد الأمين ابن زبيدة، فما سمعت بذلك اغتمَّتْ غمًّا شديدًا، وأخذتها العزة والغضب فمضت إلى مجلس زوجها هارون الرشيد تعاتبه في ذلك أشدَّ المعاتبة، وتؤاخذه أعنفَ المؤاخذة.

فقال الرشيد: ويحك إنَّما هي أمَّة محمد، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقًا بعُنقي، وقد عرفتِ ما بين ابني وابنكِ، ليس ابنُكِ يا زبيدةُ أهلاً للخلافةِ (فلا يصلح لها) ولا يصلح للرعية.

فقالت في غضب: ابني والله خيرٌ من ابنك وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، ولا صغير فيه، أسخى من ابنك نفسًا، وأشجع قلبًا.

فقال هارون الرشيد: ويحك إنَّ ابنَك لأحبُّ إليَّ - إنني أحبه كثيرًا - إلاَّ أنها الخلافةُ لا تصلح إلاَّ لمن كان أهلاً لها، وبها مستحقًا، ونحن مسؤلون عن هذا الخلقِ، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقي اللهَ بوزرهِمْ وننقلبَ إليه بإثمهِمْ، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنكِ.

جلستْ زبيدةُ إلى جوار زوجها أمير المؤمنين هارون الرشيد، ثم دعا ابنه عبدا الله المأمون، فلما وصل إلى باب المجلس سلَّم على أبيه هارون الرشيد، ووقف طويلاً وقد طأطأ برأسه، وأغضى ببصره، ينتظر الإذن حتَّى ثَقُل على قدميه من طول الوقوف، ثم أذن

---

(1) «الأخبار الطوال» للدنيوري (٣٨٨).

له هارون الرشيد بالجلوس فجلس، فاستأذنَ بالكلامِ فأذن له فتكلم فقال: الحمد لله أن مَنَّ عليَّ برؤيتك يا أبي، ثم استأذنه في الاقترابِ منه، فاقترب منه، وجعل يُقَبِّلُ أسفلَ قدميه، ويقبل باطنَ راحتيه، ثم أنثنى ساعيًا إلى زبيدةَ، فأقبل على تقبيل رأسها، ثم انثنى إلى قدميها، ثم رجع إلى مجلسه، فحمد الله إليهما فيما مَنَّ به عليها من رضى أبيه عنها، وحُسْنِ رأيه فيها، ويسأله العونَ لها على برِّه، وأداءِ المفروضِ عليها من حقِّه، ويرغب أن يوزعها شكره وحمده.

فقال الرشيد لابنه المأمون وزبيدة تجلس إلى جواره؛ يا بني أُريد أن أعهد إليك عهدَ الإمامة، وأُقْعِدُكَ مقعدَ الخلافةِ، فإني قد رأيتك أهلاً لها، وبها حقيقًا.

فبكى عبد الله المأمون، وصاح منتحبًا يسأل الله العافية لأبيه والعافية من ذلك، ويرغب إليه أن لا يريه فقدَ أبيه أو موتَه.

فقال الرشيد متوسلاً بأن يهدأ ويسمعَ: يا بني أني أعرفُ ما بي، وأنت أحقُّ، وسلِّم الأمر لله، وأرض به، وأسأل العون عليه، فلابَّد من عهدي يكون في يومي هذا. ! !

فقال عبد الله المأمون لأبيه الرشيد: يا أبتاه أخي أَحقُّ منِّي، وابن سيدتي (يقصد زبيدة) ولا أخال إلاَّ أنَّه أقوى علي هذا الأمر منِّي، وأشد استطلاعًا عرض اللهُ لك ما فيه الرشادُ والخلاصُ، وللعباد الخيرُ والصلاحُ.

ثم أذن له هارونُ فقام خارجًا.

في هذه الأثناء كانت زبيدة صامتةً لا تتكلم، فدعا هارون الرشيد بابنه محمد الأمين، فأقبل يجر ذيلَهُ، ويتبختر في مشيته،

فمشي داخلاً بنعله قد أُنسـي السَّلاَم، وذهل عن الكلامِ نخوةً وتجبُّرًا وتعظُّمًا وإعجابًا، فمشى حتى صار مستويًا مع أبيه على الفراشِ.

فقال هارونُ: ما تقول أي بني، فإني أُريد أن أعهدَ إليك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، ومن أحقّ بذلك منِّي، وأنا أسنُّ ولدِك، ابنُ قرةِ عينك.

فقال هارون: أخرج يا بني.

ثم نظر إلى زبيدة وهو طريح فراشه وقال: كَيْفَ رأيت ما بين ابني وابنك؟

فقالت في إصرار: يا أميـر المؤمنين، ابني أحقُّ بما تريد، وأولى بما لديك.

فقال هارون: فإذا أقررت بالحقِّ، وانصفت ما رأيت فأنا أعهد إلى بني ثم إلى ابنك بَعْـدُ، فكتب عهـد عبـد الله المأمون، ثـم محـمد الأمين بَعْدَهُ.

وعلى الرغم من ذلك فـقـد كانت امـرأةً عـاقلةً حكيـمةً قـويةً الشخـصيةِ، وقد تعـرضت لموقفٍ عاطفيٍّ شديد يُـعَدُّ بمثابة امتـحان وابتلاءٍ لها في الوقتِ نفسـه وعليها أن تكونَ قويّةَ النفس والإرادة في مواجهة هذا الموقفِ، فقد بايعَ هارونُ الرشيدُ ابنه عبد الله المأمون ومن بعده يكون أخوه محـمد الأمين وليًا لعهده، فلما مـات الرشيد خرج محمـد الأمين على أخيه ونقض البيـعة، وكان القتالُ بينهـما وكادت الفتنة أن تعصف بالأُمَّة، حـتى قُتل الأَمين، ولما قُتل الأمين ابنُ زبيدةَ دخل عليها من يقول: ما يجلسك وقد قُتلَ أميرُ المؤمنين محمدًا.

فقالت: ويلك ما أصنع؟

فقال: تخرجين فتطلبين بثأره، كما خرجت عائشةُ تطلب بدمِ عثمانَ.

فقالت: ما للنساء وطلب الثأرِ ومنازلةِ الأبطالِ[1]. وهذا يدل على رجاحة عقلها.

ثم أمرت بثيابها فسوِّدت، **وقالت:** إنَّ لهما يومًا يجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لهما.

ولما دخل المأمون بغداد قالت له: أُهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابنًا خليفةً، لقد عُضت ابنًا خليفةً لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وامتاعًا بما عوَّض[2].

أحضر ولو كلُّ ضربةٍ بدينار:

ومن أعمالها الجليلة التي تركتها وأنتفعَ بها المسلمونَ خيرَ انتفاع، أنها سقت أهلَ مكةَ الماءَ، بعد أن كانت الشربةُ الواحدةُ أو الرَّاوية بدينار، وأسالت المياهَ عشرةَ أميال، بشقِّ الجبالِ ونحتِ الصخورِ حتى سرَّبت الماءَ وغلغلتْهُ من الحلِّ إلى الحرم، ولما قال لها عاملُها وكيلُها: أنَّ هذا العمل يُلزمك نفقاتٍ كثيرةً.

فقالت: أحفر ولو كانت كلُّ ضربةِ فأسٍ بدينار.

وقد مهَّدت الطريقَ للماء في كلِّ خفضٍ ورفع وسهلٍ وجبلٍ ووعرٍ، وعُرفت العين «بعين زُبيدة» أو عين الشَّماس، وكان جملةُ ما أنفقت على هذه العين مما ذكره المؤرخون ألف ألف وسبعمائة ألف دينار (مليون وسبعمائة ألف دينار).

---

(١) «مروج الذهب» للمسعودي (٣/ ٤٨٦).

(٢) «وفيات الأعيان» (جـ٢، ص٣١٦).

وظلت آثارها باقيةً ومشتملةً على عمارةٍ عظيمة عجيبة، مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منًى من مكةَ، وكان الماء الذي جلبته لمكَّةَ بعينها ينزل إلى موضعٍ تحت الأرض عميق، ذي درج كثير جدًا، لا يُوصل إلى قراره إلاَّ بهبوطٍ كالبئر، يفزع المرء إذ نزل فيه وحده نهارًا فضلاً عن الليل[1]. وبلغت نفقاتها في بعض حجاتها ألف ألف دينار، وبلغت نفقتُها في ستين يومًا أربعةً وخمسينَ ألفَ درهم، فرفع إليها وكيلها حسابَ النفقةِ، فنهته عن ذلك، **وقالت:** ثواب الله بغير حساب.

أيام مع هارون الرشيد:

كانت زبيدةُ أمُّ الأمينِ زوجةً صالحةً مخلصةً لزوجها هارون الرشيد. وكان لها مواقفُ جليلةٌ، ومشاهدُ سارة، تدل على ذكائها وفطنتها وحبِّها لزوجها، وكانت هذه المواقفُ طريفةً طرافةً عظيمةً نذكر منها.

أيهما أطيب:

الفالوذجُ طعامٌ حلو يُسوَّى من لب الحنطة (الذرة) والقمح وهو طعام فارسي الأصل انتقل إلى العرب، والفالوذج طعام طيِّبٌ حلوُ المذاقِ وهناك طعام آخر يسمي اللّوزينج طيِّب حلو المذق أيضًا. وذات يومٍ اختلف الرشيد وزبيدة في اللوزينجِ والفالوذج أيهما أطيبُ فمالت زبيدةُ إلى تفضيل الفالوذج، ومال الرشيد إلى تفضيل اللوزينج وتراهنا على مئة دينار، فأحضر أبا يوسف القاضي، **وقالا له:** يا يعقوب قد اختلفنا في كذا على كذا وكذا فاحكم فيه، **فقال:**

---

(١) «أعلام النساء» (٢/ ٢٧).

يا أمير المؤمنين ما يُحكم على غائبٍ (وهو مذهب أبي حنيفة) فأحضر له إناءين أحدهما فيه فالوذج، والآخر فيه لوزينج، فجعل أبو يوسف يأكل من الفالوذج مرَّةً ومن اللوزينج مرَّةً أُخرى، ثم يعود إلى هذ مرَّةً وإلى ذاكَ مرَّةً أُخرى، وفكرَّ إنْ حكم للرشيد لم يأمنْ غضبَ زبيدةَ، وإنْ حكَمَ لزبيدةَ لم يأمن غضب الرشيدِ، فلم يزل يأكُل حتى نصَّفَ الإناءيْنِ - أي جعلهما في النصف - **فقال له هارون الرشيد:** إيه أبا يوسف؟

فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، ما رأيتُ خصميْن أجدلَ منهما، كلَّما أردت أن أُسجِّل لأحدهما أدلى الآخر بحجَّتِهِ وقد حِرتُ بينهما.

فضحك الرشيد، وأعطاه المئة دينار، وانصرف مشكوراً.

خلاف في بيت من الشعر:

نسوق هذا الموقف كما سقنا حديث الفالوذج واللوزينج سابقًا لنتبيَّن مدى السعادة التي كانت تعيشها زبيدةُ مع زوجُها هارون الرشيد، وقد كان الرشيدُ يحبُّ الشعراءَ ويجلُّهم وكذلك زبيدةُ، وفي مجلسٍ من مجالسهما الدافئةِ وقع بينهما خلاف في بيت من الشعر هو:

إنَّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فكان الرشيد يقول (يحيين قتلانا) وزبيدة تقول (يجنن قتلانا) فتراهنا وتخاطرا على ذلك بألفي دينار، ودعوا خادمًا لهما يُسمى مسرورًا، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل مَنْ ببغدادَ مِنْ أهلِ العلمِ. فإن صوَّب قولَ الرشيدِ أعطاه ألفًا، وإن صوَّب قولَ زبيدة

أعطاه ألفها، فخرج مسرور بالشموع يطلب من يفتيه في ذلك فَدُلَّ على الكسائي، وكان قريبَ عهدٍ بالقدومِ من الكوفةِ إلى بغدادَ، وكان يأوي إلى مسجدٍ ينام فيه، فَدَخَلَ عليه مسرور بخيلِهِ وحشمِهِ، فتحفَّز له الكسائي خائفًا.

فقال مسرور: لا تخفْ، إنَّه بيتٌ أُشْكِلَ علينا ـ واستفتاه مسرور في رهانِ الرشيدِ وزبيدةَ على الكلمتين في بيت الشعر، فصوَّبهما جميعا، فأعطاه الألفين، لصحة الكلمتين، وهذا دليل على مكانة الكسائي اللغوية والأدبية ولذلك جعله الرشيدُ معلمًا لأبنائه الأمين والمأمون[1].

اتزوج عليك يا زبيدةُ:

وتتواصل طرائف زُبيدةُ الأدبيَّةُ والعلميَّةُ والفقهيَّةُ مع زوجها هارون الرشيد. وهذه الطرفةُ حول الطلاقِ والزواجِ، وكان الرشيدُ يسعى من خلالها إلي معرفةِ مدى حبِّ زبيدَ لهُ، فقال لها يومًا: أتزوَّجُ عليك؟

فقالت زبيدةُ: لا يحل لك أن تتزوَّجَ عليَّ.

قال: بلي.

قالت: بيني وبينك من شئتَ.

قال: ترضين بسفيانَ الثوريِّ؟

قالت: نعم، فوجه إلى سفيانَ الثوريِّ من يُحضرُهُ، ولما حضر سفيانُ الثوريُّ وهو عالمٌ قديرٌ، وفاضلٌ كبيرٌ، له علمٌ وفيرٌ وفقهٌ غزيرٌ.

قال الرشيد: إنَّ زبيدةَ تزعمُ أنَّه لا يحل لي أن أتزوَّج عليها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ

(١) «أمالي المرتضى» (٢٣٥ بتصرف).

وَرُبَاعَ﴾ (سورة النساء: ٣). ثم سكت، **فقال سفيانُ:** تمم الآية. يريد أن يقرأ: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ (سورة النساء: ٣). وأنت لا تعدل.

فأمر هارون الرشيد بعشرة آلاف درهم، فأبى سفيانُ أن يقبلَها[1].

وفي يوم من الأيام جرى بين الرشيد وبين ابنة عمِّه زبيدة مناظرةٌ وملاحاةٌ في شيءٍ من الأشياءِ، فقال الرشيدُ لها في عرض كلامه: أنت طالق إن لم أكنْ من أهلِ الجنَّة، ثم ندم واغتم جميعًا لهذه اليمين، ونزلت بهما مصيبةٌ لتسرُّعِهِ وعدم إدراكِهِ في اللحظة أن الطلاق قد وقع أو يمكن أن يكونَ قد وقع.

جمع الرشيدُ الفقهاءَ للتباحث في هذا الأمر الاجتماعيِّ الفقهيِّ الخطير والذي بكلمة مازحةٍ كاد أن يفقدَ بها زوجه وحبيبته زبيدة. وسأل الفقهاء عن هذه اليمين فلم يجد منها مخرجًا.

وفي جلسة ضمت الفقهاءَ من سائرِ البلادِ والأمصارِ، تكلم كلُّ الفقهاءِ باستثناءِ واحدٍ منهم هو الليثُ بنُ سعد، مما جعل الرشيد يدعوه ويقرِّبه منه، ويسأله رأيهُ، فطلب من الرشيد إحضارَ مصحفٍ جامع، فأَمر به فأُحضر.

فقال الليث بن سعد: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصلَ إلى سورةِ الرَّحمن، فأخذ الرشيد المصحفَ وتصفَّحَهُ، حتى وصلَ إلى سورةِ الرحمنِ، **فقال الليث ابن سعد لهارون الرشيد:** أقرأ يا أميرَ المؤمنين.

---

(١) «الحلية» (جـ ٦، ص٣٧٨).

فقرأ الرشيد فلما بلغ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (سورة الرحمن: ٤٦). **قال الليث:** قف يا أميرَ المؤمنين هنا، فوقف، **فقال:** يقول أمير المؤمنين والله، فأقسم الرشيد، **فقال الليث:** إنَّك يا أميرُ تخافُ مقامَ الله؟ **قال الرشيد:** إنِّي أخافُ مقامُ لله، **فقال الليث:** يا أميرَ المؤمنين فهما جنتان، وأنت قلت لزبيدة: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنَّة - فهما جنتان وليس جنةً واحدةً كما ذكر الله تعالى في كتابه، ففرحت زبيدةُ، **وقال الرشيدُ لليث:** أحسنت والله بارك فيك، ثم أمر بالجوائز لليث، وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد لأنَّه أفتى بالدليل أن يمينه لا يقع على زبيدة - وعاد الليث إلى مصر مكرَّمًا.

هذه هي زبيدةُ التي حفرت «عينَ الماء» لتسقيَ حجَّاجَ مكَّةَ فسميت «بعين زبيدة» - وهذه زبيدةُ التي تزوَّجها الرشيد عام ١٦٥هـ، واسمها الحقيقي «أَمَةُ العزيز» وغلب عليها لقب زبيدة، لقدكان جدُّها المنصور يداعبها في طفولتها ويقول: يا زبيدة لبضاضتها ونضارتها[1]. فغلب عليه ذلك الأسم.

وقد كانت زبيدة أعظمَ نساءِ عصرها دينًا وحسبًا وجمالاً وصيانةً ومعروفًا ولقد تركت على طريق الحج مرافقَ ومنافع عمَّت الجميع قرونًا، وهكذا كانت بحقٍ من فضلياتِ النساء وشهيراتِهن[2].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣١٤).

(٢) «النجوم الزاهرة».



ماوراءك يا عصام



دار الإيمان
إسكندرية



رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة ١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

ما وراءكِ يا عصامُ

عـصام هي امـرأةٌ عـربيةٌ من كـنْدة، ذات عقلٍ ولسـانٍ فصيحٍ وأدبٍ جمٍّ وبيانٍ بليغ.

كانت عصـام خاطبةً معـروفةً، يعرفهـا كلُّ ملوك وأمراء وأشراف قبائل العـرب، فهي تطوفُ الوديانَ، وتأتي مضاربَ القومِ في الخيامِ والدورِ، تطلّع على حسبِهم ونسبِهم وبناتِهم، وتعرف أصولَهم وأنسابَهم وأحسابَهم.

ومن الملوك الذين عاصـرتهم عصام هو الحارثُ بن عـمرو ملك كندة، وكـان الحارثُ بن عـمـرو من أشراف العـربِ في الجاهليـةِ، كان مُطاعًا في قومـه لمهابتهِ وشـخصيتـه، قويًا في عصبيـتهِ لحزمهِ وعزمهِ وإرادتهِ وكـان من مظاهر تشريفِ العربِ في الجاهليَّة لهذا الملك المَهَيب والمطاع والقوي أنَّهم كانوا يضربون له قبَّة في عكاظ، وقد مات قبل ظهور الإسلام بقليل[1].

أما بطلة هذه القصة فهي فتاة جميلة، تحوَّل الحديثُ عن جمالها في مجلس العرب ونواديهم إلى اسطورةٍ كبيرةٍ، وقد

---

(١) مات سنة ٤٥ قبل الهجرة النبوية.

سمع عن جمالها وكمالها وقوةِ عقلِها الحارث بن عمرو ملك كنده، فأرسل من يدعو له الخاطبة «عصام»، فلما جاءت أمامه أمرها بأنْ تذهبَ لترى هذه الفتاةَ الجميلةَ لتنقلَ له صورتها الحقيقيَّةَ للتأكدِ مما سمعه من حديثٍ عن جمالِها وكمالها وفراستِها وقوةِ عقلها، وفرطِ ذكائها، **فقال لعصام:** يا عصامُ اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف.

خرجت عصام طائعةً ملبيةً للملكِ كنده الحارث بن عمرو، ومضت إلى دارِ «عوف بن محلم الشيباني» فطرقت بابهُ، فسمعتْ من يقولُ: مَنْ مِن داخل الدارِ الواسعةِ والتي تبدو عليها الرفاهية والسعة. فسمع أمها من خلف الباب تقول: من الطارق؟

فقالت عصام: عصام يا سيدتي.

ففتحت لها بابَ دارِها ورحبت بها أجملَ ترحيبٍ، وجلستُ معها في مجلس النساء في هذه الدارِ الواسعةِ الفارهةِ وجالت بنظرِها في بهو الدارَ فلم تر شيئًا تعيبه، فما أكثرَ الفرش والبسائط والستائر والحرائرَ المدلاة هنا وهناك، فأحست على الفور بأنها في دار الجمال كلِّهِ والسحرِ كلِّهِ،

فمالت على أمِّ الفتاةِ، وقالت لها: إنَّ الحارث بن عمرو ملك كنده قد سمع مثلما يسمع الرجل في مجلسهِ عن فتاة جميلة تحدث الناس عنها وكأنها أسطورةٌ أو عروسٌ قد نزلت من السماءِ لفرطِ جمالِها وحُسنِ عقلِها وذكائها.

تبسمت امرأةُ عوف بن محلم الشيباني، كأي أمٍّ تفرحُ عندما تكون ابنتها لهفةَ الشبابِ ورغبةَ الملوكِ وحلمَ الأشرافِ وأصحابِ الأنسابِ والأحسابِ، **وقالت:** سأدعوها لك الآن على الفور، انتظري قليلاً يا عصام، جلست عصام تنتظر الفتاة وقد تهيَّأتْ تمامًا لتتفحصَ هذا الجمالَ الذي أصبح اسطورةً تتحدث عنه كلُّ نوادي العربِ في الجاهليَّةِ.

وأرسلت الأمُّ إلى ابنتها لتحضرَ إليها سريعًا وتتركَ كل ما يشغلها في الدار، ولم تطلبُ الأمُّ من ابنتها كالعادة أن تتزيَّن، أو تبدي زينتها أمام عصام الخاطبة وتلك هي عادةُ الأمهات عندما تأتيهن الخاطبات ليطلعن على بناتهنَّ ولينقلنَ الصورةَ إلى الرجالِ.

ولما جاءت الفتاة أمام أمِّها، قالت لها: أي بنية، هذه خالتك عصام قد أتتك لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئًا أرادت

النظر إليــه من وَجْهٍ وخَلْقٍ، وناطقــيهــا إن استنطقــتك، أي كلميها إذا كلمتك.

دخلت عصام إلى الفتاة في حجرتِها، فنظرت إلى ما لم تر عيــنُها مِثْـلَهُ قطُّ بَهْجَـةً وحُسْنًا وجــمالاً؛ فإذا هــي أكملُ الناسِ عقلاً وأنصحهمُ لسانًا، لقدتحدثت إليها فسمعت كلامًا جمبلاً وأسلوبًا رصينًا وعــباراتٍ منمقة تدل على علمٍ وفهمٍ، وحــاورتْها فــبــرز الذكــاءُ وطلعت عليــها صنــوفُ الفراســةِ والفطنةِ، واستنطقتها ففاضَ الــشعرُ والنثرُ على لسانِها فزادته جمالاً بصوتِها المغرِّدِ تغريدَ الكروانِ في عسس الليل المنصرف وظلت عينا عصام تفــحص هذا الجمالَ من أعلى الرأس إلى أخمص القــدمْين وساعدتها على ذلك فطرةٌ الأنثى وقــدرتها على الفحصِ والوصفِ، والنقل المفــصلِ لكل صورةٍ وقعت عليها عــيناها حتى إنَّها حينما خــرجت من عندها كانت في دهشةٍ لم تعــرفها من قــبلُ وقد خــبرت جمــال بناتِ العربِ جميعًا في غدوِّها ورواحها ودخولها وخروجها لدورِ وقصورِ الملوكِ والسادةِ وخيام الأشرافِ من قبائل العرب وشيوخهم.

فــقــالت وهي خــارجــة: «تَرَكَ الخَــداعَ مَنْ كَـشَـفَ القِنَـاعَ» فصــارت مثلاً.

ثم أقبلت إلى ملك كنده الحارث بن عمرو، فما إن دخلت عليه حتى هلّل **قائلاً**: «ما وراءَك يا عصامُ»[1]. فأصبحت مثلاً كذلك.

فقالت: صَرَّحَ المخضُ عن الزُّبدِ ـ وهذا مثلٌ يؤخذ أي ظهر الأمرُ بوضوحٍ وتبيُّنٍ.

ثم قالت: أيها الملك: أخبرُك صِدْقًا وحقًّا.

فقال: أخبريني يا عصام.

فاستأذنت الملك وجلستِ أمامه مجلسًا تتخذه النساءُ عند الوصف والقصِّ فقالت تصف ابنةَ عوف بن محلم الشيباني خَلْقًا وأخلاقًا، **فقالت**: رأيتُ جبهةً كالمرآة الصقيلةِ، يزينها شعر حالكٌ كأذناب الخيل المضفورةِ، إن أرسلتهُ خلته أو تخيلَته السلاسلَ، وإن مشَطَتهُ قلت عناقيد كرم جَلاها الوَابلُ ـ وهو المطر الشديد ـ وتشبه عصام هنا شعر الفتاةِ عندما تمشطه بعناقيد العنب التي غسلها وأظهرها بوضوح المطر الشديد.

قالت عصام: وحاجبين كأنما خُطّا بقلمٍ أوسُوِّدا بفحمٍ، قد تقوّصا على عين الظبية الرقيقة البشرة الناصعةِ البياض ـ

---

(١) انظر: «مجموع الأمثال» (٢ - ١٩٢).

البَهرة، التي لم يرُعْها قانصٌ ـ صياد ـ ولم يذعرها ويخيفها أسدٌ ـ وبينهما أنفٌ كحدِّ السيفِ المصقولِ، لم يخنس به قِصَرٌ ـ والخنسُ هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، ولم يَمْضِ بها طولٌ، حُفّتْ وَجنتَان كالأرجوانِ ـ في بياضٍ مَحْضٍ كاللؤلؤِ والجُمانِ. شُقَّ فيه فَمٌ كالخاتم، لذيذُ المبتسَم، فيه ثنايا غُرّ، ذوات أُشُر، وأسنانَ تبدو كالدرر، يتَقلَّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيان، يُحرِّكُه عقلٌ وافر، وجانبٌ حاضرٌ . . . إلى أن **قالت**: فأمَّا بنظمٍ أو نثرٍ ـ وقبلَ أن نُكملَ زواجَ الملك ـ نتحدث عن الوصف، ولعل أشهر وصف جاء للنساءِ والرجال غير وصف عصام جاء عن أفضلِ النساء أفضلِ الرجال ـ ما روته المراجع[1] ـ فقالت:

خرجت العجفاءُ بنت علقمةَ السعدي وثلاث نِسوةٍ من قومِها، وتواعدنَ روضةً يتحدثن فيها، فَوَافينَ بها ليلاً في قَمَرٍ زَاهرٍ، وليلةٍ طلقةٍ ساكنة، وروضة مُعْشبةٍ خصبةٍ.

فلما جَلَسْنَ قُلْنَ، ما رأينا ليلةً كالليلة هذه، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحًا ولا أنضر! ثم أفضنَ في الحديثِ

(١) «مجمع الأمثال» (٢: ٧٢).

فـقلن: أيُّ النساءِ أفـضلُ؟ **قـالت إحـداهُنَّ:** الخرود - الحـيـيـة الطويلة السكوتُ الودودُ الولودُ. **قـالت الأخـرى:** خيرهُنَّ ذاتُ الغَنَاء وطيبِ الثناءِ، وشدّةِ الحَياءِ.

وقـالت الثـالثـةُ: خيـرُهُنَّ السَّمـوعُ - التي تسمـع القـول - النَّفوعُ، غيرُ المنوعِ.

وقالت الرابعةُ: خيرَهُنَّ الجامعـةُ لأهلِها، الوَادِعَةُ، الرافعةُ لا الواضعةُ.

قلت: فأيُّ الرجالِ أفضلُ؟

قـالت إحـداهُنَّ: إنَّ أبي يُكرم الجارَ، ويُعْظِمُ النَّارَ، وينحرُ العشـارَ (وهي الناقة التي مـضى لحملها عـشرةُ أشهـر) بعد الحـوارِ (ولد الناقـة) وهذا دليلٌ على كرمـه - ثن اسـتطردتْ قائلةً: - ويحمل الأمورَ الكبارَ، ويأنف من الصَغَارِ.

فقالت الثانيةُ: إنَّ أبي عظيمُ الخطرِ، منيعُ الوزرِ (الملجأ)، عزيزُ النفرِ، يُحْمَدُ منه الوردُ والصَدرُ.

فقـالت الثـالثـةُ: إنَّ أبي صدوقُ اللسـانِ، مديدُ الجنانِ[1]. كثيرُ الأعوانِ يُروي السِّنانَ عندَ الطعانِ.

---

(١) الجنان: القلب.

فقالت الرابعةُ: إنَّ أبي كريمُ النزالِ، مرتفعُ المَقَـالِ؛ كثيرُ النَّوَالِ، قليل السؤالِ، كريمُ الفعالِ.

ثم ذهبنَ وتحاكمنَ إلى امرأةٍ عاقلةٍ معهُنَّ في الحيِّ، فقلنَ لها: اسمـعي ما قلنا واحكمي بيننا واعدلي؛ ثم أعـدنَ عليها قولهُنَّ، **فقـالـت لهُنَّ:** كل واحـدة منكنَ بلغت الغـايةَ بأبيهـا واجدة محبَّةً له، على الإحسان جـاهدة، لصواحبها حاسدة، ولكنْ اسمَعْن قَـولي: خيرُ النساءِ المُبقيـةُ على بَعْلِها، الصابرَةُ على الضـرَّاءِ مخـافةَ زن ترجعَ إلـى أهلها؛ فـهي تؤثرُ حظَّ زوجها على حظِّ نفسها، فتلك الكريمةُ الكاملةُ، وخيرُ الرجالِ الجـوادُ البطلُ، القليلُ الفـشلِ، إذا سـألهُ الرَّجلُ ألفـاه قليلَ العِللِ، كثيرُ النَّفَلِ والعطاءِ، ثم قالت: كلُّ فتاةٍ بأبيها معجبة.

وبعـد هذا الوصف نعودُ إلـى عصـام وزواجِ ملك كندة بابنةِ عوف بن حلم الشيبانيِّ واسمُها: «أُمُّ إياس».

ذهب ملك كنـدة لخطبـتـهـا، **فـقـال أبوها عـوف:** نعم أزوِّجكما على أنْ أُسَمِّيَ بنيها، وأُزوِّجَ بناتِها.

فقال ملك كندة: أمَّا بنُونا فنسميهم بأسمائنا، وأسماء آبائنا وعمومتنا. وأما بنـاتِنَا فنزوجهنَّ أكفاءَهنَّ من الملوكِ، ولكنِّي

أصدقهـا وأدفع لها مهرًا قـصرًا في كندة، وأمنحهـا حاجاتِ قومِها لا تُردُّ لأحدٍ منهم حاجة!

فقبل عوف الشيبانيُّ من ملكِ كندة ذلك، وزوَّجها إيَّاه.

نصيحة الأم عند الزواج:

جـاء يوم الزفـاف، وأذَّن صـاحبُ الموكبِ برحـيل أُم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانيِّ إلى زوجها الحارثِ بن عوف مـلك كندة وشريفِ العـربِ في الجاهليَّـةِ المطاعِ في قومه، القويِ في عصبيته، فجاءت الأم أُمامةُ بنت الحارث تودِّعَ ابنتَها فـقالت: أيْ بُنية، إنَّ الوصيـة لو تُركت لفَضْلِ أدبٍ، تُركَت لذلك منك، ولكنها تذكِـرة للغافلِ؛ ولو أَنَّ امرأةً اسـتغنت عن الزوج لِغنَى أبويْهـا، وشدَّة حـاجتهـما إليها كنتِ أغنى الناسِ عنه، ولـكنَّ النَساءَ خُلقن للرجالِ، ولهنَّ خُلقَ الرجالُ.

أيْ بنيَّـةُ؛ إنَّكِ فارقت الجـوَ الذي منه خرجتِ، وخلَّفتِ العُشَّ الذي فـيه دَرَجْتِ، إلى ذكـرٍ لم تعرفـيه، وقـرين لم تألفيـه، فأصبح بِمُلكِهِ عليـكِ رقيبًا ومَلـيكًا، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لَكِ عبدًا وشيكًا ـ أي سريعا ـ.

يا بُنيَّة احملي عنِّي عَشْـرَ خصالٍ تكنْ لكِ ذُخرًا وذكرًا: الصُّحبة بالقناعةِ، والمعاشرة بـحسن السمع والطاعةِ، والتعهد لموقعِ عَيْنهِ، والـتفقـد لموضعِ أنفه؛ فلا تقع عـينهُ منك على قبـيحٍ، ولا يشمَّ منكِ إلاَّ أطيبَ ريحٍ؛ والكُحل أحـسنُ الحُسْنِ، والماء أطيبُ الطيب المفقود، والتـعهد لوقتِ طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإنَّ حرارة الجـوعِ مَلْتَهبة، وتنغيصُ النومِ مَغْضَـبه، والاحتفاظ بِبَـيته وماله، والإبقـاء على نفسه وحشمهِ وعيالِه، فإنَّ الاحـتفاظَ بالمالِ حسنُ التقدير، والإبقاء على العيال والحشم جميل حَسَنُ التدبير؛ ولا تُفْشي له سرًا، ولا تَعْصِي له أمـرًا؛ فإنَّكِ إن أفشيتِ سـرَّه لم تأمني غَدْرَهُ، وإن عَصَيْتِ أمرَهُ أوغَرْتِ صدْرَهُ؛ ثم اتقي مع ذلك الفرحَ إنْ كان تَـرِحًا، والاكتـئابَ عندَهُ إنْ كان فَرِحًـا، فإنَّ الخـصلةَ الأُولى من التقـصير، والثـانية من التكدير، وكوني أشـدَّ ما تكونين له إعظامًا يكن أشـدَّ ما يكون لك إكرامًـا، وأشدَّ ما تكونين له موافقةً يكن أطولَ ما تكونين له مرافقةً.

واعلمي أنَّكِ لا تصلين إلى ما تحـبين حتى تؤثري رضاهُ على رضاكِ، وهواهُ على هواكِ فيمـا أحببتِ وكرهتِ: والله يُخيرُ لك!

زُفت الفـتاةُ إلى زوجـها ملك كندة عـمرو بن الحـارث وعاشت تذكر كلماتِ أُمِّها أُمَامَةَ بنت الحارث فكانت تضعها دستورًا لها في كـل ما يخص علاقتها بزوجهـا، ولقد كانت نصيحةُ الأمُ العربيَّـة شاملةً بحيث أنها كادت تُغطِّي كلَّ شيءٍ يهم ابنتهـا، وتشعر أنها قدَّمت لابنتِـها خلاصةَ تجـربَتِها مع الزوجِ أو خلاصة تجارب الأزواج مع نسائِهم.

وانجبت «أم اياس» لزوجها ملـكِ كندةَ عمرو بن الحارث طفلاً جمـيلاً هو الحارثُ بن عمـرو والذي أصبح فيمـا بعد جداً لـشاعر العـرب المشهـور بشعـره العربي الأصـيل وهو الشاعر «أمرؤ القيس».

وقد كَـثُر الحـديثُ في المصادرِ عن صـفة الزواج، فـقد تزوَّج رجلٌ يقال له لقيط بفتاة عربيَّة، فلما أرسَلها أبوها إلى زوجها فوَدَّعَته.

قال الأب لإبنته ناصحًا: يا بُنيَّـةُ كوني له أَمَـةً يكن لك عبـدًا، وليكن أطيبَ طِيبَكِ الماءُ ثم لا أذكـرتِ، ولا أيسرت (أي لا تلد له أبـناء وأهلهـا كـانوا أعـداءه) فـإنَّـك تلدين الأعـداء، وتقربين الـبعـداء، إنَّ زوجَك فـارس من فرسـان

مُـضر، وإنَّه يوشك أن يُقـتل أو يموت، فـإذا كان ذلك فـلا تلطمي عليه وجهًا، ولا تحلقي شعراً.

قال الأب لابنتـه ذلك لأنَّ لقيطًا زوجَـها كـان عدوًا لأهلهـا وقـومهـا، ولكنَّ الأبَ زوَّج ابنتـه لهـذا الرجل لفروسيته ورجولته.

ومـرت الأيام وقتل زوجُـها لقـيط، فلما قُـتل زوجهـا حُمِلَتْ إلى أهلـها، ثم مالت إلى أهل زوجـها، **وقـالت:** نعم الأحمـاء يا بني دارم، وأنا أوصيكـم بالغرائب خيـرًا فلم أر مثل لقيط.

ثم عادت إلى قومها، فـتزوَّجها ابنُ عمٍّ لها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيطٍ.

فـقـال لـهـا زوجـهـا: أي يوم رأيت فيه زوجك لـقيطًا أحسن في عينيك؟!

قالت: خرجَ يومًا يصطاد، فطارد البقـرَ فصرع منها، ثم أتاني مُخَضَّبًا بالدماءِ، فضـمَّني ضمَّةً، ولثمني لثمة، فليتني مِتُّ ثَمَّةَ (أي ليتني مُتّ بعده من شدَّة محبتها له، لشاهمته ورجولته).

فخرج زوجها ففعل مِثل ذلك ثـم أتاها، فضمها ولثمها (قبَّلها)، **ثم قال لها:** من أحسَنُ، أنا أم لقيط عندك؟

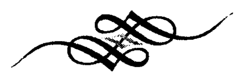
فقـالت كلمة اتخـذها العرب مثـلاً فيمـا بعد، لبـلاغة قولهـا، وحسن اسـتدلالهـا ـ لقد قـالت لابن عمـها الذي تزوَّجها بعد لقيط ردًّا على سؤاله: **«مرعى ولا كالسعدان»**.

والسـعـدان: نبتٌ له شـوكٌ، وهو من أفـضل مـا ترعـاه الإبل، وبه يضـرب المثلُ فيـقـال: مرعىً ولا كـالسعـدان، ومقصودُها أنَّ زوجَها لقيطٍ لا يفضلُهُ آخر.

وبذلك اعتزت بصفاتِ الرجل الذي تزوَّجها وأن كان غريبًـا وعدوًا وفضلته على زوجـها الثاني وإن كان قـريبًا وابن عمٍّ.

ومن قصـتنا هذه ـ ما وراءكَ يا عـصام، وما تـبعناه من أخبـار العرب عن النسـاء نتبـيَّن أنَّ الخبـرةَ والتجـربةَ أمر لا يُستهان به، فإذا سـمعت الفتاةُ نصيحةِ أُمِّهـا فإنَّها تُوفِّرُ على نفـسهـا متـاعبَ التـجريبِ، وتتـجنَّـبُ الخطأ وتستكثـرُ من

الصوابِ، فتقــبلُ على حياتِها بفهمٍ صحــيحٍ، وبنفسٍ راضيةٍ واثقةٍ، عارفةً سلفًا علاجَ كل موقفٍ، فهي هادئةٌ ساكِنةٌ عند نومِ زوجِهــا، وهي فرحــةٌ تشاركهُ الفــرحَ، وتعرفُ مــواقيتَ طعــامِــهِ وشرابِــهِ ولا تؤذيه في ذلك وصــدق اللهُ العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (سورة فاطر: ١٤).





فاطمة والأمير الزاهد

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية



رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

فاطمة والأمير الزاهد

فاطمة بنتُ عـبد الملك بن مروان ابنةُ خليفـةٍ هو عبد الملك بن مروان وأختُ خلفاءهـم الوليد بن عبد الملك وهشام سـليمان ويزيد وهي زوجة أميرِ المؤمـنين الخليفةِ العادلِ عمر بن عبـد العزيز، كانت من أكثرِ النساء وفاءً لزوجِها.

كانت فاطمةُ الأميرةُ فصيحةً أدبية، وكانت ذاتَ جمالٍ أخاذ وخلقٍ ناقذٍ، وكانت ديِّنةً ورعةً ورعًا لم يسبق إليه أحدٌ من نساء بني أميَّةَ.

وكان لعبد الملك بن مروان بضعُ بناتٍ مَنْهُنَّ: عائـشةُ وفاطـمةُ وأمِّ كلثوم. وكانت فـاطمة أقربَ بناته إلى قلبِه ومن أحـبهنَّ إليه، وبلغ من حُبِّه لها أن أوصى بها أحبَّ أبنائه إليه وهو الوليد بن عبد الملك **فقال له:** يا بنيَّ، عليك بالإحسان إلى أخواتِك فأكرمهنَّ، وأحبُهنَّ إليَّ فاطمة.

وقد دعا لها أبوها عبد الملك فقال: اللهم احفظني فيها.

وقد استـجاب ربُّ العزَّة لدعائِه حينمـا قسَم لها الزواج من ابن أخيه الخليفةَ العادل عمرَ بن عبد العزيز.

وكانت فاطمةُ شديدةَ الارتباطِ والتـعلُّق بأبيها حتى وفاته، فلما حضرته الوفاةُ، **قال لها:** يا بنيةُ، اسقني ماءً، فمنعها أخوها الوليد . **فقال له عبد الملك:** يا وليد، لتـدعُنها تحضـرُ الماء، أو لأخلعنك من ولايةَ العهد. فتركها الوليد، فسقته فمات.

الزواج المبارك:

نظر عبـد الملك إلى ابن أخيه عمـر بن عبد العزيز، وتذكّـر أخاهْ عبد العزيز بن مروان، ولما نظر إلى ابن أخيه أُعجب به إعجابًا شديدًا، فقد كان عمر فتى جميلاً من أكـثر الناس اهتمامًا بثيابه وملبسه، فكان يشتري الحلّة بألفِ دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها[1].

وكان رضـوانُ الله عليه يشتري القـميصَ بأربعمـائة دينار، فإذا لمسه بيده، قال: ما أخشنه.

وكان حبُّه للعطر والطيب شديدًا، حتى أن أترابه وأصحابه كانوا يدفعون المال الوفيـر لمن يتولّى غسلَ ثياب عمر حـتى يغسلوا ثيابهم بعد ثيابه كي تكتسب عِطرَ ملابسِ.

وقد عاشَ الأمير الأموي الشاب حياةً رغدةً تعجُّ بالرفاهية، فكان إذا مشى بهر العينيْن، وخطر بيديه في خُـيـلاء، تميز بها عن كثير من أقرانِهِ وأترابِه، حـتى إنَّه أصبح صـاحب مَشيـةٍ ملوكيِّـة، فلما تولى الخلافةَ غـيَّر مشيتـه فقيل له: يا أمير المؤمـنين، غيرت في كلِّ شيء حتى مشيتك، فقال نادمًا على ذلك: والله ما رأيتها كانت إلا جنونًا[2].

وكان الفتى الأمـوي يمتلك عبيدًا وثيـابًا وعطرًا، وبالطبع أموالاً كثيرة ومتـاعًا عظيم، فنشأ هادئًا ذكيًا نقيًا وعالمًا وفـقيهًا مما لفت نظر عمه عبد الملك فأمر بضـمِّه إليه يعيش بين أسرته وأولاده، فمن شدة حبه له خلطه بولده كأنَّه واحد منهم، بل قدَّمه على كثير منهم.

---

(١) «مروج الذهب»، (جـ٢، ص١٤٥، ١٤٦).
(٢) «الخراج» لأبي يوسف، (ص١٧).

وقد زاد اهتمامُ أمـير المؤمنينَ عبد الملك بن أخيه عـمر بن عبد العزيز لما رأى فيـه من علمٍ ونباهةٍ، وفراسة، ودينٍ، غير مـا سمعه من أقوال الناس من أنهم يتوقعون من عمرَ بأنه الذي بشَّر به عمر بن الخطاب فقال عنه الأشجّ الذي يملأ الأرض عَدْلاً.

وإذا وُجدت كلُّ هذه الصفاتِ الكريمة في عمر بن العزيز فكيف لا يفكرُ عبد الملك ابن مروان في صلة وثيقـة تربطه بابن أخيه عمر، لقد أحب عـمر حبًّـا شديدًا وفاطمـةً ابنته هي التي دعا لهـا قائلاً: اللهم احفظني فيها».

وفي يوم من أيام خلافـةِ عبد الملك، كانت الخـلافة الأُموية في عـزِّها، وفيـما كـان عـبد الملك يجلـسِ بين وزرائه وقادة جـيوشـه وخاصتـه في قصر الخـلافةِ في دمشق، طابت نفسـهُ بأن يجمعَ ابنَ أخيه عمرَ بن عبدالعزيز وبنته فاطمة، فتهيَّأ المجلسُ لسماعِ أمرٍ مهم، عندئذ توجَّه إلى عمرَ، **قائلاً:** يا عمرُ.

فانتفضَ عمر واقفًا وهو يقول في أدبٍ: لبيك يا عمَّاه.

فقـال أميرُ المؤمنين عبـد الملك لعـمـر: قد زوَّجتُكَ فـاطمةَ بنت عبد الملك.

فقـال عمـر في أدبٍ وفصـاحـةٍ: وصلك الله يا أميرَ المـؤمنين، فقد كفيت المسألة، واجزلت العطيةَ.

أُعجب عبد الملك بهـذا الردِّ البليغ، وبدا البشرُ والسرورُ على وجهه، لكن أحد أولاد عبد الملك قلل من هذا **قائلاً لأبيه:** «يا أمير المومنين هذا كلام تعلَّمـه فأدَّاه، ولا يُحْسِنُ غيـره، ورُبَّ رميةٍ من غير رامٍ».

سكت عبدُ الملكَ ولم يُعلِّق على كلامِ ابنِه، وانفضَّ المجلسُ، وفي اليوم التالي دخل عمرُ على عبـد الملك وحَيَّاه بأدبٍ، فأحَبَّ عبد الملك أن يُرِيَ ولَده قيمة عمرَ ومكانتَهُ وعلْمَه، **فقال:** يا عمر، كيف نفقتك؟

قال عمر: يا أمير المؤمنين، بين السَّيئتين.

فقال عبد الملك: وما هما يا عمر؟

فقال عمر بعلم ودارية: نفقتـي يا أميرَ المؤمنين كمـا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (سورة الفرقان: ٦٧).

فازداد عبدالملك إعجابًا بهذه الإجابةِ الكافيةِ الشَّافيةِ، **وقال لولده:** مَنْ علَّمه هذا؟

وتمَّ زفافُ فاطمةَ بنت عبد الملك إلى عـمرَ عبد العزيز، وكانت فاطمةُ من أجـملِ النساءِ وأحسنهنَّ، وأكملـهنَّ أدبًا ورقَّةً، وكان يومُ زفافها يومًا جميلاً في دمشقَ، فقد حضرَ الناسُ من كلِّ مكانٍ عرسَ فاطمةَ وعـمرَ فكانوا يُسرِجُونَ القناديلَ بالغـالية مكان الزيت، وأولم عمر بن عبـد العزيز بمناسبة عُرْسه على فاطمـة. وعاشت فاطمة في كنف ابن عمِّها الأُموي حياةً مرفهةً جميلةً.

وقد أصبـحت فاطمة بنت عبد الملك ـ رحـمها الله ـ من ذوات الشُّـهرةِ في عصـرِها، فقـد خصـها الله عـزَّ وجلَّ ـ بمنحة الفـضلِ والجمالِ والفصاحةِ والأدبِ، كما خصَّها الله بالحصافة والذكاءِ وحب العلمَ والروايةَ.

كانت فاطمـة أميرةً من أميرات بني أمـية اللائي تمرغنْ في ثياب الحريرِ المـعطرِ، وتَطَيَّبْنَ من قـوارير لا حصـرَ لهـا من عطرِ «دارين»

المشهور، «ودارين» هذه مدينةٌ كانت تقع في البحرين ومشهورةٌ بنتاج أجودِ أنواعِ الطيبِ والعطورِ، وقد اشتهر أحد قرّاء لقرآن السبعة ونُسب إلى «دارين» هذه لأنَّه كان يجلب منها العطر إلى مكَّةَ فُسمي عبد الله بن كثير الداري ـ قارئ مكَّةَ الأوَّل.

نعود إلى فاطمة فلقد جاء زمان تغيرٌ فيه حالُها، فلم تصبح أميرةَ العطرِ والعنبر، ولا سيدةَ الدورِ والقصورِ، بل تبدلت حياتها من حالٍ إلى حالٍ، ووضعت صناديقُ الذهبِ والحلي إلى مكانٍ آخر غير خزانةِ فاطمة أو قصورها الواسعةِ الجميلةِ. ترى متى حدث هذا؟ ولماذا؟

إذا أردنا أن نجيب على هذه الأسئلة فإننا نعودُ إلى الأيامِ التي استلمَ فيها عمروُ بن عبد العزيز الخلافةَ وأصبح خليفةً المسلمين، يومها تغيرت الحالُ وتبدَّل الأمرُ، ـ فقد جاءت لحظةُ اختيار مهمة بين أميرةِ القصر، وبين داعيةِ المسلمين أو قل زاهدة المسلمين ـ في هذه اللحظة كانت تجلس مع زوجها عمر بن عبد العزيز الذي التفت إليها بحنوٍ وعطفٍ يدل على إيمانٍ ورفقٍ **وقال لها:** يا بنة عمِّي، إنْ أردت صُحْبتي فاسمَعي منِّي هذه الكلماتَ.

قالت فاطمةُ: حُبًّا وسرورًا يا أمير المؤمنين، قل ما بدا لكَ.

فقال عمر: إن أردت صحبتي فإنِّي مُخيرك بين اثنيْن، إما أنْ تردِّي حليك وما معَكِ من مالٍ وجواهر إلى بيت مال المسلمين فإنَّه لهم؛ وإمَّا أن تأذني لي في فراقكِ، فإنِّي أكره أنْ أكونَ أنا وأنتِ وهو في بيتٍ واحدٍ.

فأجابت أميرةُ الأميراتِ على الفور قائلةً: بل اختاركُ يا بن العم على أضعاف هذا المال لو كان لي؛ ثم ردته إلى بيتِ مالِ المسلمين لأنَّه لهم.

هكذا كان اختيــارُ الأميرةِ ـ على الرغم من أنَّ هذا المالَ لم تنله فاطمةُ إلاَّ من هدايا أبيها أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[1].

وأصبحت أميرةُ الأميـراتِ زاهدةَ الزاهداتِ في قصور بني أُمية، طعامُـها طعامُ الناسِ لا يزيد ولا يـنقص، وقد طلب عمـر منها ألا تدخل أو تأخذ طعام الناس طعامًا خاصًا لهم، وذلك عندما أن أنشأ دارًا لإطعام الفقراء والمساكين وأبناءِ السبيلِ والمحتاجين، **فقال لزوجته فاطمـةَ وأهل بيتـه جميـعًا**: إياكم أن تُصيـبوا من هذا الدار شيـئًا من طعامِها، فإنَّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل.

مشاهدةٌ مع عمرَ الزاهد:

أعلمُ الناسِ بالرَّجل هي امرأته، وقد وصفت فاطمة زوجها عمر ابن عبد العزيز **فقالت**: كان عمر بن عـبد العزيز ـ من أعظمِ قريشٍ، وأرفههم مَرْكبًا، وألينهم ثوبًا، وأطيبهم طعامًا، قبل أن يلي الخلافةَ، فلمَّا وُلِّيَ الخلافةَ لـبس الكرابيسَ والصُّوف، وربَّما ادَّهَن بزيت العلَّة ـ تعني الماء ـ ولا رفع ثوبًا يدَّخـره، ولا اتَّخذ أمةً منذ وَلِيَ الخـلافة إلى يومَ مات، فهذه كانت حياتُه.

ولـم يكن حديثُ فاطمةَ بنت عبد الملك عن زوجها عمر بن عبد العزيز من فـراغ، فقد كـان الرَّجل مثـلا يحتذى، وفـيمةَ تُقـتدَى، ونستشف إخلاصَهُ من حوارِ دارَ بينه وبين ابن عـمِّهِ سليمان بن عبد الملك عندما سأله عمَّا هو فيه من مُلْكٍ عظيمٍ ونعيمٍ مقيمٍ، **فقال له**:

---

(١) «الكامل في التاريخ»، (جـ٥، ص٤١).

يا عمرُ كيف ترى ما نحن فيه؟ **فأجابه قائلاً:** سرورٌ لولا أنَّه غرورٌ، وحُسنٌ لولا أنَّه حُزْنٌ، ونعيم لولا أنَّ عذابٌ أليم[1].

فكيف كان هو - ذلك سؤالٌ طُرِحَ على فاطمةَ يوم وفاةِ عمر، فقد ذهب إليها الفقهاءُ والعلماءُ مُعزين، ومن ثمَّ سائلين عن تقوى الخليفة الزاهد **فقالوا لها:** يا فاطمة أخبرينا عن عمر، فإنَّ أعلم النَّاسِ بالرجل أهلهُ.

فقالت: «والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صيامًا ولكن الله ما رأيتُ عبدًا أشدُّ خوفًا لله من عمر، كان همُّه بالناس أشدَّ من أمْرِ همِّه بنفسه، قد فرَّغ بدنَه ونَفْسَه للنَّاس، يقعد لحوائجهم يومَه، فإذا أمسى وعلَيه بقيةٌ مِنْ حوائجهم وصله بليله».

لم يبق للأمير الزاهد وقتٌ للملذات، - وفي ذلك تقول فاطمةُ أميرةُ الزاهداتِ أو زاهدة الأميرات: ووالله، إنْ كان عمر ليكون في المكان الذي ينتهي إليه الرَّجُل مع أهله، فيذكرُ الشَّيءَ في أمرِ الله فيضطربُ كما يضربُ العصفورُ قد وقع الماء، ثم يرتفع بكاؤهُ حتى أَطْرحَ اللحافَ عنِّي رحمةَ له، والله لو رددتُ لو ان بيننا وبين هذه الإمارة بُعْدَ ما بين المشرقيْن[2].

وتقول فاطمةُ عن الأمير الزاهد عمر بن عبد العزيز: دخلت عليه وهو في مصلاَّهُ ودموعهُ تجري على لحيتِهِ، فقلت أحدثَ شيءٌ يا بن العم؟

فقال: «إنِّي تقلَّدتُ أَمْرَ أُمةِ محمَّد فتفكرت في الفقيرِ الجائعِ، والمريضِ الجائعِ، والغازي، والمظلومِ، والمقهورِ، والغريبِ الأسيرِ،

---

(١) المسعودي في «مروج الذهب» (٢/ ١٤٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٦).

والشيخِ الكبيرِ، وذي العيالِ الكثيرِ، والمالِ القليلِ، واشباههم في أقطار الأرضِ، فعلمت أنَّ ربي سيسألُني عنهم يومَ القيامة، وأنَّ خصمي دونهم محمَّدٌ ﷺ إلى الله، فخشيت ألاَّ تثبت حجَّتي عند الخصومة، فرحمت نفسي فبكيتُ».

في بيت الأميرة الزاهدة:

تذكر سيرةُ أميرِ المؤمنين عمر بن عبد العزيز الكثيرَ عن بيته هو وزوجه فاطمة بنت عبد الملك - ومن ذلك أنَّ امرأةً قَدمت مِنَ العراقِ لحاجةٍ على عمر بن عبد العزيز، فلمَّا صارت إلى باب بيته سألت **قائلةً:** هل على أمير المؤمنين حاجبٌ يمنعُ الناسِ من الدخول عليه؟

فقالوا لها: لا يا أمةَ الله، ادخلي إن أحببت.

ودخلت المرأة على فاطمة بنت عبد الملك، وهي جالسةٌ في بيتها، وفي يدها مغزلٌ تعالجُ به القطنَ، فسلَّمت عليها، فردَّت فاطمةُ السَّلام، **وقالت لها:** ادخلي - فدخلت المرأةُ ولما جلست راحت تجولُ بنظرِها في بيت أمير المؤمنين، فلم تجد قصرًا ولا خدمًا ولا حشمًا، فأصابتها الدهشةُ وتعجبَّت وتمت **قائلةً:** عجبت إنما جئت لأُعمِّرَ بيتي من هذا البيت الخرب؟

فلما سمعتها فاطمةُ الأميرةُ الزاهدة قالت لها: إنَّما خَرَّبَ هذا البيتَ عمارةُ بيوت أمثالك.

وسمعت فاطمةُ وقع خطى رجُل، فإذا هو عمر قد أقْبَلَ حتَّى دخل الدَّار، واتَّجه نحو بئرٍ في ناحية الدار، وأخذ دلوًا من الماء وأفرغه على طين كان في البيت، وكانَ يكثرُ النظرَ إلى زوجه فاطمة.

وتعجبتُ المرأةُ العراقيةُ من عمرَ - وهي لا تعرفه - لأنَّه ينظرُ إلى فاطمة.

فقالت لها المرأة وقد تعجَّبت من نظره إليها: يا فاطمةُ استتري من هذا الطيَّـان، فـإنِّي أراه يُديمُ الـنَّظَرَ إليكِ، وأنتِ أنتِ مـن المكانةِ والفضل والرِّفعةِ.

قالت فاطمةُ والبسمة تعلو وجْهها: يا أَمَةَ اللهِ، ليس هذا الرَّجلُ بطيَّان.

فقالت المرأة: ومن هو إذًا؟!

قالت فاطمةُ: هو أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبد العزيز زوجي.

ثم أقبل عمر، فسلَّم، ودخل بيتهَ، فمالَ إلى مصلّى كانَ لهُ في البيت فصلّى فيه، فسألَ فاطمةَ عن المرأةِ **فقالتْ:** هي هذه.

فأخذ عمر مكْيلاً له فيه شيءٌ من عنب، فجعل يتخيَّر له خَيْرَهُ، ويناولها إيَّاه، ثم أقبل عليها **فقال:** ما حاجتُك يا أمةَ الله؟

فقالت: يا أميـرَ المؤمنين، أنا امرأةٌ من أهل العـراق، لي خمسُ بنات كُسَلٌ كُسَدٌ (أي: لا مصـدرَ رزقٍ لهنْ)، فجئت ابتـغي حُسْنَ نظركِ لهنْ.

فجعل يقول: كُسُلٌ كُسُدٌ، ويبكي.

فأخذَ الدواةَ والقـرطاسَ، وكتب إلى والي العراقِ فـقال: سمِّ كُبراهُنَّ، فسمَّتها، ففرض لها. **فقالت المرأة:** الحمد لله.

ثم سأل عن اسم الثانية، والثالثة والرابعة - والمرأة تحمد الله فلما فرض للأربع استفزَّها الفرحُ، فَدَعَتْ له، فجزته خيرًا، **وقالت:** جزاك الله خيرًا - فرفع يده عن الخامسة، **وقال:** كنَّا نعرضُ لهنَّ حيث كنتِ تولينَ الحمدَ أهلَه، فمري هؤلاء الأربع يُفضْنَ على هذه الخامسة.

فخـرجت بالكتـاب حتَّى أتت به العـراقَ، فدفـعتـهُ إلى والي العرق، فلمَّـا دفعت إليه الكتابَ بكى وشـتدَّ بكاؤه، **وقال:** رحم الله صاحب هذا الكتاب.

فقالت المرأة: أمات.

قال: نعم.

فصاحت وولولت، **فقال لها:** لا بأسَ عليك يا أمةَ لله، ما كنتُ لأردَّ كتابَهُ في شيءٍ، فقضى حاجتها، وفرض لبناتها[1].

وعاشت أميرة الأميرات، الأميرة الزاهدة حياة الزهد مع زوجها أميـر الزاهدين عمر بن عبـد العزيز. ومن أمثلة ذلك أن مـسلمةَ بن عبد الملك أخـا فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ دخلَ على عمـرَ يعودُهُ، فرأى قميصَـهَ دَنسًا وسخًا، **فقال لأختهِ فاطمةَ:** ألبسيه غـيرَ هذا القميصِ! واغسلوا ثياب أمير المؤمنين، فسكتت فاطمة ولم تردَّ على مسلمة.

فقال مسلمةُ ثانيةً: يا فاطمةٌ ألبسي أميـرَ المؤمنين عمرَ غيرَ هذا القميصِ أو اغسليه، فإنَّه يَدْخُلُ عليه الخاصُّ والعامَّ.

فقالت فاطمة: نفعل ـ إن شاء الله ـ.

ثم دخل مسلمةُ مرَّةً ثانيةً يعودُ عمر، فرأى الثوبَ كما هو على حالهِ، **فقالَ لأختِهِ فاطمةَ:** ألبسيه غيـرَ هذا القميص! واغسلوا ثياب أمير المؤمنين، فسكتت فطمة ولم تردَّ على مسلمة.

---

(١) «سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن عبد الحكم (ص١٤٤) وما بعدها.

فقال مسلمةُ ثانية: يا فاطمةُ ألبسي أميرَ المؤمنين عمرَ غيرَ هذا القميص أو أغسليه فإنَّه يدخلُ عليه الخاصُّ والعامُّ.

فقالت فاطمةُ: نفعل - إن شاء الله -.

ثم دخلَ مسلمةُ مرَّةً ثالثةٍ يعود عمرَ، فرأى الثَّوب بحالِه، **فقال:** ألم آمركم أن تغسلوا قميصَه.

فقالت فاطمةُ وقد اغرورقت عيناها بالدُّموع: والله يا أخي ما له قميصٌ غيرُه، وكانت نفقتهُ في كُلِّ يوم درهَمَيْن[1].

انظر كيف زَهدَ الأميرِ وزوجه الأميرة في الدنيا وما فيها رغبًا في الآخرة ورهبًا من الله عزَّ وجلَّ، فالأمير الزاهد وزوجه باستطاعتهما أن يلبسا أفخرَ الثياب ويتناولا ألذَّ وأطيبَ الطعامِ، فقد كانت حياتُهما قبل أن تولِّى عمرُ الخلافةَ كذلك حياة أُمراء ينعمون بكل متاعِ الدنيا، ويرفلون في ثيابِ النعيم، فيلبسون الحريرَ ولقد كانتْ نفقةُ عمرَ بن عبد العزيزأمير المؤمنين وخليفة المسلمين درهمينْ في كلِّ يومٍ، وبيده كلُّ أموالِ الدنيا، ولكنَّه كان أحيانًا يشتهي بعضَ الفاكهةِ، ولا يملك درهمًا واحدًا يشتري به.

دخل يومًا على فاطمة وقد اشتهى عنبًا، **وقال:** يا فاطمة، عندك درهمُ اشتري به عنبًا؟

قالت: لا والله يا أميرَ المؤمنين لا أملك درهمًا.

---

(١) «الكامل» (جـ٥/ ٦٢).

قال: فعندكَ فلوس إذًا؟

قالت في تعجبٍ: لا والله، أنت أميرُ المؤمنينَ، ولا تقدرُ على درْهمٍ!!

فقال عمر ـ رحمه الله ـ: «يا فاطمةُ، هذا أهوَنُ من معالجةِ الأغلالِ في جهنم»[1].

ولم يشترِ عمرُ ما اشتهاه من الفاكهةِ، وحرم نفسَهُ من متاع الدُّنيا، عندما وضعَ المالَ تحت قدميه ولم ينحنِ أمامه كما ينحني أهلُ الطمعِ في زماننا هذا.

أصبحت فاطمةُ وحياتُها الزاهدةُ مع زوجها أمرًا معتادًا لها يستغربه النَّاسُ على أمير المؤمنين وأهلهِ، وقد كان عمر حسن الجسم ممتلئًا جميلاً، وعندما صارت إليه الخلافة تغيَّر، وتغيَّرت طريقة تفكيرهِ، فقد دخل عليه محمد بن كعب القرظي بعد استخلافه، فوجده ناحلَ الجسم وقد عف شعرُهُ، وتغيَّر لونُهُ، وكان عهدُهُ به في المدينة وهو أميرٌ عليها ـ حسنَ الجسم، ممتلئًا، فجعل ينظر إليه ولا يصرف بصره عنه.

فقال عمر له: يابن كعب، مالك تنظر إليَّ نظرًا ماكنت تنظرهُ إليَّ من قبلُ. **فقال محمد بن كعب:** لعجبي يا أميرَ المؤمنين؟

قال عمر: وَمِمَّ عجبُك؟

---

(١) الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٦٣٤).

قال محمد بن كعب: ممَّا نحل من جسمك، وعفا من شعرك، وتغيَّر لونك، أين ذاك اللونُ النضيرُ، والشَّعرُ الحَسنُ، والبدنُ الرِّيان؟

فقال عمر: إنَّك إذا الأشدّ عجبًا من أمري، وإنكارًا لي، لو رأيتني بعد ثلاثٍ في قبري، وقد وقعت عيناي على وجنتيَّ، وسكن الدود أنفي وفمي، ثم راح يبكي ويبكي ويبكي.

أمَّا فاطمةُ فقد طرحت وراءها كلَّ ذكريات الإمارةِ والنعيم والقصور حتى وإن ذُكرَت بذلك كان ردُّها يدلُّ على أنَّها خرجت من نعيم الدنيا ومتاعها إلى الأبد فلم تبد حنينًا لذلك ولا أسفًا عليه.

وقد دخلَ عليها عمرُ يومًا يُذكرها بإحدى منتجعاتِ الشام ومصايفه أيَّام الإمارةِ، فقد دخل عليها وهي تخيطُ ثوبَها بيدهَا، فطرح عليها ثوبًا قديمًا كان عليه، ثم قال لها مداعبًا، يا فاطمة لَنَحْنُ ليالي (يذكِّرها بمتنزَّه دابق وهي قريةُ قربَ حلب - أنعم منَّا اليومَ، فذكَّرها ما كانت نسيت من عيشها آنذاك ومن حياتها المنعَّمةِ قبيل الخلافةِ في برج دابق ومُتَنَزَّهاته الجميلة.

فضربت فاطمةُ يَدهُ ضربةً فيها شيءٌ من العُنفِ، فنحَّتها عنها، **وقالت له في أسىً:** لعمري لأنني اليومَ أقدرُ منك يومئذ.

وعبس عمرُ وحزنَ من كلامها، فقام يريدُ أن يمشيَ، وهو يقول بصوتٍ حزين ممزوج بدموعِ الخشيَة والرَّهبةِ من الله - عزَّ وجلَّ -: يا فاطمُ، ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الأنعام: ١٥).

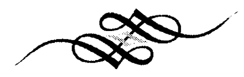
فتأثرت فاطمةُ وبكتْ وهي تقول: اللَّهم أعِذْهُ من النارِ.

وكـانت الأمـيـرةُ الزاهدةُ إلى جـوارِ زوجهـا في أيام مـرضِـهِ الأخيـرةِ، لم تفارقه أبدًا، وتتـحدث عن هذه الأيام، فتـقول: كنت أسمعُ عـمرَ في مـرضِهِ الذي مات فـيه، يقول: اللّهم أخف عليهم موتي ولو ساعةً من نهار.

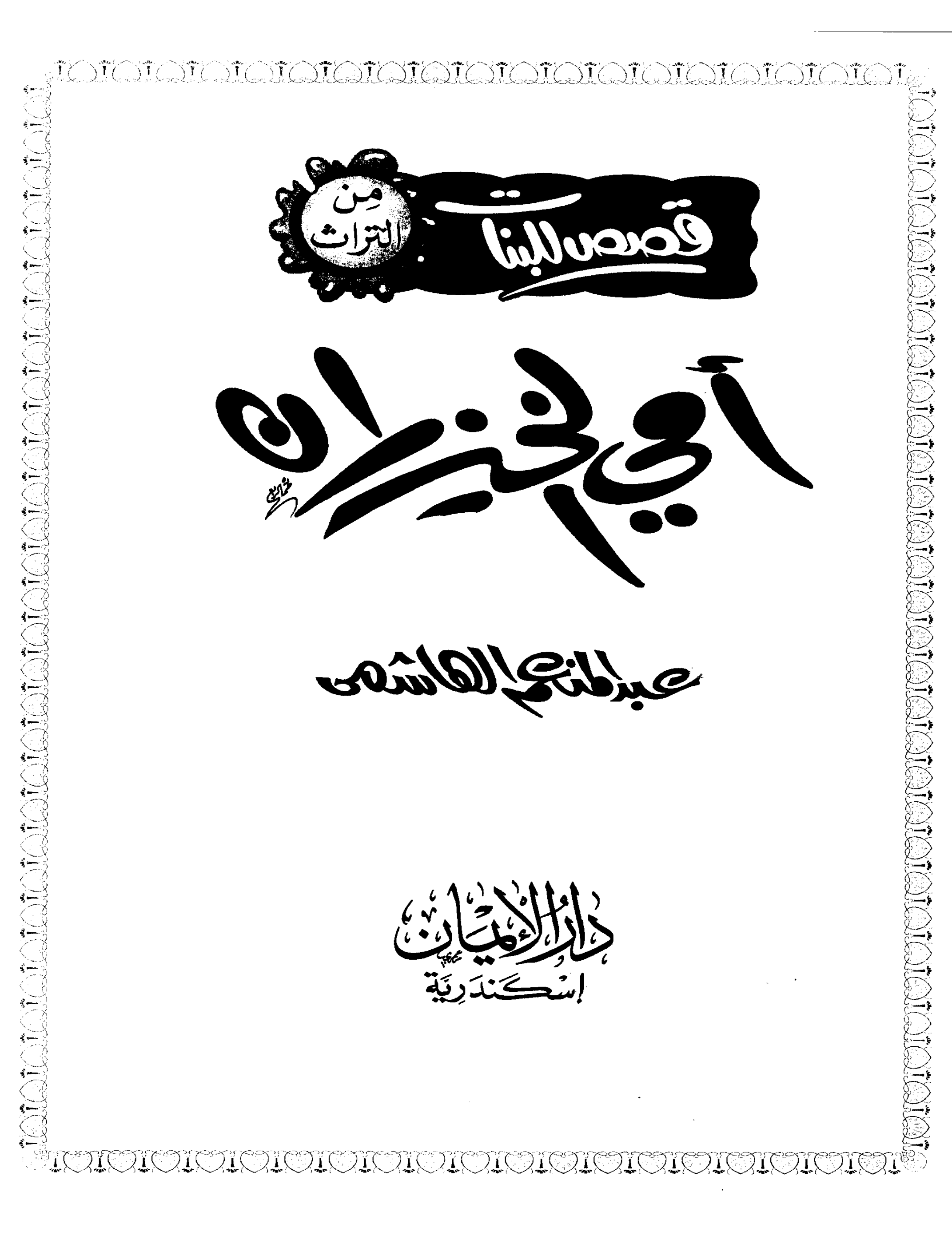
وتقول أيضًا: فلما كان اليوم الذي قُـبضَ فيه خَرَجْتُ من عنده، فجلستُ في حـجرةٍ أخرى بيني وبينه بابٌ، وهو في قُـبةٍ، فسمـعتهُ يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة القصص: ٨٣).

ثم هدأ، فـجعـلتُ لا أسمع له حـركـةً ولا كلامًـا، فـقلت لوصيفٍ كـان يخدمـهُ؛ ويحك أنظر أميرَ المؤمنين أنـائمٌ هو؟ فلما دخل عليـه صاحَ، فـوثبتُ، فدخـلتُ عليه، فـإذا هو ميِّت، قـد استـقبل القـبلةَ، واغمض نفـسَه، فـوضعَ إحدى يديه على فِـيهِ، والأُخرى على عينيه[١].

وجـزع المسلـمـون والناسُ لموتِهِ، وجـزعت الأمـيـرةُ الزاهدةُ فاحتسبته عند الله واسترجعت قائلةً: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون»، وقد توفي عـمر في سنة ١١٠هـ رضى الله عن فـاطمةَ، والأميـر الزاهد عمر بن عبد العزيز.



(١) «الكامل في التاريخ» (جـ٥/ ٦١).


قصص للبنات
من التراث
أمي خيزران
عبد المنعم الهاشمي
دار الإيمان
إسكندرية



رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة ١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

أمي الخيزران

الخيـزرانُ بنتُ عطاء هي أمُ هارونَ الرشيـدِ أميرِ المؤمنين وسـيد المسلمين في زمانِه، كـانت جاريةً تُباع في سوق الرِّقِ، ثم أصـبحت أميرةً محظيةً حكيمةً لها شأنٌ عظيمٌ ليس ككلِّ النساءِ.

كيف انـتقلت الخيـزرانُ من الرِّقِ إلى الجـواري، ومن الجواري إلى الحرائرِ؟

كيف تحولتْ من الفقر إلى الثراءِ؟ ومن الحاجةِ إلى الرفاهية؟

كيف أصبحت أشهرَ أمٍّ في عصرِها، وأشهر أميرةٍ في زمانِها؟

والخيزرانُ بنتُ عطاء امرأةٌ يمانيَّةٌ جُـرشيَّةٌ، من جُرش من أعمال اليمن وقـد تَعَرَّضتْ للرِّقِ والسـبي، فعُرِضتْ فـي سوقِ الرِّقِ على الخليفة المهدي ابن المنصور العباسي ليشتريها، فأعجبتهُ.

رأى فيـها جمـالاً غير هذا الجـمال الذي أخذه حين نظر إليـها النظرةَ الأُولى، إنَّه جمال الذكاء والفطنة.

كانت الخطوةُ الأولى التي جـعلت الخيزرانَ مـحظيةً أو صاحـبة حظٍّ عظيمٍ هي دخولُها جاريةً في قصر أمير المؤمنين المهدي.

لاحظ أمير المؤمـنين الجاريةَ الحسناءَ اليمـانيَّةَ الأصلِ والأرومة، فرأى فيها فصاحةً غيرَ فصاحةِ جواريه ونسائِه، وسَرعةَ بديهةٍ مَنَّ اللهُ

(١) «البداية ولانهاية» (جـ١).

بها عليـها، وطلاقةَ لـسان، وحُسْنَ حـديثٍ، وعن الأخلاقِ وأدبِ النساءِ، فهي مهذبةٌ ساميةُ الأدبِ حسنهُ الخلقِ.

دوَّى اسمُ الخيزرانِ في جنباتِ القصرِ، قصرِ أمير المؤمنين المهدي دوياً هائلاً أزعجَ النساءَ وأدهش غـيرَها من الجواري، ولما تصـاعدت غيـرتُهن أطفأتْهَـا حظوةُ هذه الجاريةِ الحسناء عـند الأميرِ، فـما من حديثٍ يدور بين الأميرِ والجاريةِ إلا أخذَهُ دفءُ الكلمِ وانفراجُ الثغور على الوجوه، وما مِنْ رأى تطرحُه الجاريةُ الحسناء «الخيزران» إلاَّ وقد وجد آذانًا صاغيةً في أرجاء القصر ومن صاحب القصر.

لم يَدرْ بخلدِ النسـاءِ ولا الجـواري في يوم من الأيام أن ترتبطَ الخيزرانُ بـنتُ عطاء إحدى جواري المهدي، بأمـير المؤمنين ذاته، لم يكن هذا الأمـرُ في حساب إحـداهُنَّ، فكلٌّ هذا في نظرِهُنَّ مـجرَّدُ ملاطفةٍ يلاطفُ بهـا أميرُ المؤمنين جاريةً من جـواريه تُحسن الحديثَ معه، وقد أرهقَها الرِّقُ وأذلَّها فاستدعت ألفاظَها الساحرة وابتساماتها المشرقةَ كي تُقلِّلَ من مذلَّةِ الرِّقِّ التي هي فيها، ولهُنَّ الحقُّ فيما ذهبْنَ إليه من ظنٍّ حولَ علاقةِ أمير المؤمنين بها.

الزواجُ المبارك:

مـا كانت الخـيـزران تحلم بشيءٍ سـوى هذا الحلم الذي تحـقَّقَ بمجيئهـا من سوق الرِّقِّ إلى قصر أمير المؤمنين فـهذا الأمرُ هو صرحُ أمانيها الغالية الحالمة إلى أبعـد حدٍّ، ولكن أن تكونَ أميرةَ هذا القصرِ فإنَّها لم تتـصوَّر هذا الأمر أو مجرَّدَ التفكيـر فيه، فلم تكن تعلم أنَّ

المهدي غارقٌ في حبِّها إلى أُذنيه عـاشِقٌ لذكائها وفطنتها حتى إنَّه لم يعد يصبر على فـراقها لحظةً واحدةً، ولكنَّها وجدت في نفسـها شيئًا غيـرَ الذي في نفوسِ غـيرها من الجـواري، فقد أحـبت هذا الرَّجلَ وخافت بل خـشيت أن تتجـاوزَ حدودَها ومكانَها فـينهار الحلمُ كلُّه ولربَّما تفقد حتى حياتَها إذا لم تحسبْ لكلِّ شيءٍ حسابًا.

وفجأةً استدعى المهدي الخيزران للقائها على عجلٍ، وما هي إلا لحظات حتى كـانت الخيزران بنت عـطاء أمام أميـر المؤمنين المهدي، وقد أطرقتْ خـجلاً وارتعـدت خوفًـا وقلقًا فـهي لا تدري أى جُرمٍ ارتكبت حتى تُسـتدعى هذا الاستدعـاءَ العاجلَ، ترى هل أحسَّ بما في نفسـها من جـهته وأراد أن يردَّها بعـيدًا عن حظوتِه في مـجاهل قصوره أم اشتكتها زوجـه الأُولى (ريطة بنت أبي العباس السفَّاح) أم أن مكيدةً من مكائد النساء الجواري قد صُنعت لها لكي يُطاحَ بها من أمامهن وقد حجبتْ عنهن أمير المؤمن بحظوتها ومكانتها الأليفة التي جعلتها أثيرةً إلى نفسِه وقلبِه.

قطع هذه الأفكار السريعة، والتي مرَّت مرورَ البرقِ في لحظات، قطع كلَّ هذا صوتُ أمـير المؤمنين مُرَحِّبًا بالخيـزرانُ، دون أن يسبق اسمـها بكلمـة «يا جارية» . . فـسرت في جسـدها رعشـةُ خوفٍ، **وأجابت:** نعم يا أميرَ المؤمنين.

فقال: لقد أعتقتك، فأنت الان حُرَّةٌ، ولا تنتسبين إلى الجواري.

أصابت الدهشةُ الخيزرانَ، بل قل شدَّةُ الفرح التي عقدت لسانَها

فلم تنطق بكلمةٍ ولم تجد لصوتِها مخرجًا تعبِّر به عن شكرها أو فرحها وانهمرت دموعُها على خديها من الفرحة في الوقت الذي اقتربت منها بعضُ الجواري مهنئاتٍ على ما أفاءَ الله عليها من نعمةِ الملك فهي الآن حرَّةٌ بعد أن كانت جاريةً، ولما شهقت باكيةً من الفرح كتمها صوتُ المهدي وهو يقول: ولقد رغبت الزواجَ منك يا خيزران. . !! هزت الخيزرانُ رأسَها وهي لا تدري، بل كادت تنطق بالموافقة لولا حياؤها وسرى إلى مسامعها قول بعض الجواري كلمة «سيدتي الأميرة»، واستعدَّ القصر كلُّه لهذا الحدث العظيم والعرس الكبير، فانتشرت الزينة، وعمَّ الفرح جميع الأرجاء، وانتشر خبر زواج المهدي من الخيزران بنت عطاء العربية الحرَّة اليمانية الجرشية.

الزفاف الفريد:

كان زفاف الخيزران بنت عطاء للمهدي وأمير المؤمنين العباسي زفافًا فريدًا أُولِمت فيه ولائمُ العباسيين المعروفةُ بسخائها وكرمها فقد جمعت ما لذَّ وطاب من فاكهة الأمصار وخيرِ البلاد وحظيت الخيزران بمنزلة عاليةٍ عند زوجها المهدي، مما لفت إليها أنظارَ القصرِ، حتى إنَّ «ريطةَ بنتَ أبي العباس السفاح» ضرتها واشدَهُنَّ عداوةً لها - كانت تتقربُ إليها فتهديها بعضَ جواريها كيَّما تحظى بعطفِ المهدي لما تجده من ميل المهدي إليها وحُبّه الشديد لها.

وأدرك الناسُ منزلةَ الخيزران ومكانتَها عند زوجها المهدي، فكانوا يقصدون دارَها وقصرَها لتتوسطَ لهم لدى المهدي لقضاءِ

حوائجهم، وكـان المهدي يستجيبُ لطلبـها، لما لها من منزلة عنده، وأصبح قصرُها قبلةَ الأنظارِ، ومقصدَ النَّاسِ ذوي الحاجات والفقراء.

وقد قدَّمهـا المهديُّ على جميع نسائِه، لأدبها وجمـالها وذكائِها ولما لها في قلبـه من مكانةٍ عظيمةٍ سمت بهـا سموًا رفيعًـا في قصر المهدي. وزادت مكانـةُ الخيزران عند المهـديِّ عندما ولدت خليـفتين هما الهادي والرشيد (هارون الرشيد).

وقد ذكر المؤرخون[1] أنَّه لم تلد امرأةٌ خليفتيْن غيرُ ثلاثِ نسوة، هُنَّ:

الأولى ـ ولاَّدة بنت العبـاس العبـسية؛ تزوَّجـها عـبد الملك بن مروان، فـولدت له الوليد بن عـبد الملك، وسليـمان بن عـبد الملك وكلاهما وُلِّي الخلافة بعد أبيه.

الثانية ـ شاهفرند بنت فيروز بن يزدجـرد، تزوَّجها الوليد بن عبد الملك فولدت له ولدين وكلاهما وُلِّي الخلافة.

الثالثة ـ هي الخيزران بنت عطاء، ولدت للمـهدي ولدين هما موسي الهادي، وهارون الرشيد، وكلاهما تولَّى الخلافة[2].

وقد انجـبت الخيـزرانُ ابنها مـوسي الهادي (عـام ١٤٤) وتولَّى العهدَ وعمره (١٦ عامًـا)، وانجبت ابنها هارون لثلاث بقين من شهر ذي الحجة (عام ١٤٥هـ).

---

(١) «البداية والنهاية» (جـ١، ص١٦٣).
(٢) «شذرات الذهب» (جـ٢).

وقد استطاعت الخـيزران بنت عَطاء أن تبني علاقاتٍ قـويةً بينها وبين نساء الأمـراءِ والوزراءِ، فكانت تربطهـا بهن روابطُ متيـنةٌ قوَّيةٌ ولعل ثمارَ هذه العلاقاتِ اثمرت ثمارًا حقيقيَّة طيِّبةً.

ومن هذه الأُسر التي صادقتها الخـيزران الأُسرة البرمكيَّة، أُسرة يحي بن خالد البـرمكي، حيث أن نساءَ يحي البـرمكي قد تمكنَّ من التسللِ إلى قلبِها، فَحَظَيْنَ عندها حظوةً كبيـرةً، فهُنَّ يجالسنها كثيرًا ويسامرنها عن كل شيء يشغل شاغلها.

وأصبحت الأُسرةُ البرمكيَّةُ، أُسرةُ يحيى بن خالد البرمكي قريبةً إلى قلبِ الخـيزرانِ بنت عطاء أمّ هارون الرشـيدِ، بل ومـحل ثقتـها وحبِّـها الدافئ الشديد، واختـصت الخيزرانُ فـاطمةَ بنتَ محـمد بن الحسِن أمّ جـعفر البرمكـي، صديقةً مقـربةً إلى نفسهـا وبالتالي إلى أسرتِها كلِّها بما فيهم المهدي.

ووصل الأمر بالخـيزران أن دفعت ابنها هارون إلى فـاطمة أمِّ جعفرَ البـرمكيِّ لكي تُرضِعَهُ وبهذا أصبحتُ فاطمةُ أمُّ جـعفرَ بمثابة الأُمِّ لهـارونَ الرشـيـد ويحـيى البـرمكي بمثـابةِ أبٍ للرشـيـد في الرضاعة، وأصبح أبناء يحيى بن خالد البرمكي بمثابةِ أخوةٍ لهارونَ الرشيد في الرضاعة.

مع المهدي:

استحوذت الخيزرانُ جاريةُ القصر وعتيقةُ المهدي، والعربيَّةُ الأصل على قلب المهدي، فقد استعذبتْ طعمَ الملكِ والحريةِ وملك النفسِ بعد أن عانت من مذلةِ الرِّقِّ والاستعبادِ، فاظهرت شخصيةً قويةً، وكان لشخصيتها القويَّةِ سببٌ في ذيوع شهرتِها واهتمام أهل عصرِها وزمانِها بها.

ولعل أكثر الناسِ تأثرًا بشخصيتها القويَّةَ هو زوجُها المهدي أميرُ المؤمنين العباسي، فقد أعجبَ بها إعجابًا شديدًا وأحبَّها إلى درجةِ العشق، حتى إنَّه كان إذا غابتْ لا يقدر على فراقِها وبثَّها أشواقَه العظيمةَ الحارَّةَ، بل ونَظَمَ شعرًا فيها. حتى إنَّه لما خرجت إلى الحج لأداء الفريضة، دون أن تأخذَه محرمًا وأخذت أحدَ أقاربِها محرمًا لها، فكتب إليها شعرًا يبثُ فيه أشواقَهُ لها وهي بمكَّةَ، قال فيه:

نحن في غايةِ السرورِ ولكنْ ▫▪▫ ليس إلاَّ بكم يتمُّ السرورُ
عيب ما نحن فيه يا أهلَ وُدِّي ▫▪▫ إنكم غُيَّبٌ ونحن حُضورُ
فأجِدُّو السيرَ إنْ قدرتُمْ ▫▪▫ أن تطيروا مع الرياحِ فطيروا

ولم نقصد بهذا القول من الشعر إلا أن نبيِّنَ كيف استحوذتْ الخيزران على قلب المهدي.

وقـد اشــتكى المهــديُّ أمـيــرُ المؤمنين من سـطوةِ زوجـه، وشخصـيتها القويَّةِ، وذلك ما ذكـره المؤرخون ومنهم الواقدي[1]. **الذي قال:** دخلتُ على المهدي يومًا فحدثتُهُ بأحاديثَ فكتبها عني ثم قامَ فـدخل على بيوتِ نسـائِهِ ثم خرج وهو ممتلـئٌ غيظًا، فـقلت: مالك يا أميرَ المؤمنين؟

فقال: دخلتُ على الخيزرانِ فقامت إليَّ ومزَّقت ثوبي وقالت: ما رأيتُ منك خيرًا، وإني والله يا واقدي إنما اشـتريتها من نخَّاسٍ (بائع الجـواري)، وقد نالت عندي مـا نالت، وقـد بايعت لولديها بأمـرة المؤمنين من بعدي.

فـقـال الواقـدي: يا أميـرَ المؤمنين إنَّ رسول الله ﷺ **قال: «إنَّهنَّ يغلبن الكرامَ ويغلبـهن اللئـامُ»، وقـال: «خـيـركم خـيـركم لأهله وأنا خيركم لأهله»، «وقد خلقت من ضلع أعوج إنْ قوَّمته كسرته»،** وحدثته في هذا الباب بكـلام يحضرني، فـأمر لي بألفيديناو فلمـا وافيت المنزل إذا رسول الخـيزران قد لحـقني بألفي دينار، ومعـه أثواب أخر للأمير وبعثت تشكرني وتُثني عليَّ معروفًا.

ويتبـيَّن من ذلك أنَّ الخـيزرانَ كـانت نافـذةً إلى قـلـب زوجـها تستطيع أن تسوقَ دلال الأنثى عليه إلى حدٍّ إغاظته وتمزيق ثوبهِ، كما

---

(1) انظر: «البداية والنهاية» (مجلد ٥ جـ١٠، ص١٥٧، ١٥٨).

أنَّ مقولةَ الواقدي بأنَّ الخيزرانَ أرسلت له مالاً شاكرةً له حديثه الذي دعا إلى تقويم المرأة لا كسرها، وقد ضمت للمال والشكرِ أثوابًا أخرى للمهدي الأمير والزوج بدل التي مزقتها قبل ذلك لتقول هكذا أكون معه وهو الأمير ولكنَّ الحبيبةَ إلى القلبِ والزوجةَ لا يُردُّ لها أمرٌ، وقد عزَّى المهدي نفسه بشكواه للواقدي، فإذا كانت هذه هي شخصيةُ الخيزران فمن يكون المهديُّ الزوجُ؟ والمهديُّ هو الخليفةُ العبَّاسيُّ، الذي كان مُحبًّا لزوجه الخيزران وكان بليغًا فصيحًا جميلاً، قال وهو يخطب في الناس يومًا:

«أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تَهْنكُمُ العافيةُ، وتحمدوا العاقبةَ، واخفضوا جناحَ الطاعةِ لمن ينشرُ مَعْدَلَتَهُ فيكم، ويطوى ثوب العهد عنكم، وأهال عليكم السلامة ولين المعيشةِ من حيث أراه الله، مقدمًا ذلك على فعل من تقدمه، والله لأعفيَنْ عمري من عقوبتكم، ولأحملن نفسي على الإحسان إليكم».

وكان المهدي كريمًا سخيًا ذكيًا ومن ذكائِهِ وفراستِهِ أنَّه دخل عليه رجلٌ يومًا ومعه نعل، **فقال:** هذه نعلُ رسول الله ﷺ قد أهديتها لك. **فقال:** هاتها، فناولها إياه، فقبَّلها ووضعها على عينه وأمر له بعشرة آلاف درهمٍ، فلما انصرف الرَّجلُ، **قال المهدي:** والله إني لأعلم أنَّ رسول الله ﷺ لم ير هذه النعلَ، فضلاً عن أن ينتعلها،

ولكن لو رددتُه لذهب يقولُ للنَّاس: أهديتُ إليه نعل رسول الله ﷺ فردَّها عليَّ، فتصدَّقه الناسُ، لأنَّ العامَّةَ تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصرُ الضعيفِ على القوي، وإن كان ظالمًا فاشترينا لسانَه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح[1].

مع الأبناء:

تعاملت الخيزرانُ مع ولديها موسى الهادي وهاون الرشيد معاملةَ الأُمِّ الحريصةِ على أن يكونَ الأبناء في أحسنِ هيئةٍ وأحكمِ رأيٍ وأنبلِ خلقٍ وسلوكٍ، هكذا تمنت الخيزران لولديها، وهكذا تتمنى كلُّ أُمٍّ لأبنائها.

فإذا تحدثنا عن أكبرهما موسى ولقبه الهادي نجد أن الهاديَ وُلِدَ بالري وهي مدينةٌ بشمالِ العراق قريبةٌ من حدودِ بلاد فارس، ولد سنة سبع وأربعين ومائة وتولَّى الخلافةَ سنة تسع وستين عندما توفي والده، وكان عمرهُ اثنتين وعشرين سنةً، ولم يل الخلافة قبله أحد في مثل هذ السن، وظل خليفةً سنةً وأشهرًا، وكان يُسمي موسى الأطبق: لأنَّ شفته العليا كانت تتقلَّص، فكلَّف أبوه المهدي خادمًا من خدمه وهو صغير أنه كلما رآه مفتوحَ الفم، ان يقول: موسى أطبق فيطبق ويضم شفتيه فاشتهر عنه ذلك.

---

(١) «البداية والنهاية» (مجلد ٥ جـ١٠، ص١٥٧).

ولم يذكر له مآثر غير الفصاحة والأدب، فكان فصيحًا، قادرًا على الكلام أديبًا، تعلوه هيبة[1].

أما الابن الثاني فهو هارون الرشيد وقد تجمَّعتْ له كلُّ صفاتِ النجابة والخلافةِ والإمارةِ غير أخيه الهادي وهذا في نظر أمه الخيزران أيضًا.

وقد وصفه المؤرخون فقالوا: «كان الرشيدُ أنبلَ الخلفاءِ، وأحشمَ الملوكِ، ذا حجٍّ وجهادٍ، وغزوٍ، وشجاعةٍ ورأيٍ. وكان أبيضَ طويلاً، وسيمًا، ذا فصاحةٍ وعلمٍ وبصرٍ بأعباءِ الخلافة، وكان يُصلِّي كلَّ يومٍ مئةَ ركعةٍ إلى أن مات، وكان يتصدَّقُ ويُحبُّ العلماءَ ويُعظِّمُ حُرماتِ الدينِ، ويُبغض الجدالَ في الكلام ويَبكي على نفسِهِ ولهوِهِ وذنوبِهِ، لاسيما إذا أُوعِظَ».

تولَّى الهادي الخلافةَ وكان فيه بعضُ القصورِ، فبدأت الخيزرانُ تقربَ الناسَ من قصرها ومن مجلسها حتى تُكملَ قصورَ وتقصيرَ ابنها الذي تعرفه قبل أن يعرفه الناسُ، ولكن الهادي رفضَ موقفَ أُمِّه، فبعد أن صبر عليها قليلاً اتخذ منها موقفًا حازمًا، وتبيَّنَ ذلك حينما ـ كلَّمتُه في أمرٍ لم يجدْ إلى إجابتِهِ سبيلاً، فتحلَّل وتملَّل وساق الحججَ، كي لا يستجيبَ إلي طلبِها ـ وكان لرجلٍ اسمه عبد الله بن مالك.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (جـ ٨، ص٤٤١).

ولما قالت له: لابدَّ من إجابتي إليه، **فأجابها بوضوح وتحدٍّ:** لا أفعل.

فقالت الخيزران: فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ووعدتُه بقضائها.

فغضب الهادي وراح يهدِّدُ وقد أرعد وأزبدَ قائلاً: ويل لابن مالك، قد علمت أنَّه صاحبُها، والله لا أقضيها لك.

فلما سمعت الخيزران منه ذلك غضبت وقالت: إذًا والله لا أسألك حاجةً بعدها أبدًا.

فقال الهادي على الفور: لا أبالي إذًا والله يا أُماه..!!

غضبت الخيزران على ابنها أشدَّ الغضبِ، ونظرت إليه نظرةَ انهزامِ الأُم من عصيانِ ابنها، وخرجت وهي على هذه الحال، فنادها في استهجان وتهديد، **وقال لها:** قفي مكانَك فاسمعي كلامي.

فلما وقفت قال لها: والله، لئن بلغني أنَّه وقف ببابك أحدٌ من قوَّادي، وخاصتي، لأضربن عنقه، ولأقبضَنَّ ماله، فمن شاء فليلزم ما أقول.

ثم استطرد يقول لها: أما لك مغزلٌ يشغلُك؟! أو مصحف يُذكِّرُك؟ أو بيت يصونُك؟

ثم رفع رأسه وأصبعه محذرًا فقال: إيَّاك! وإيَّاك، ثم إيَّاك! لا تفتحي بابك لمسلمٍ ولا ذِمّيٍّ.

فانصرفت الخيزران غاضبةً من أمام ابنها ولم تنطق بشيء بعدها، ولم يسمع أنها تدخَّلت في أمر، بل لم تنطق عنده بحلوة ولا مرَّةٍ بعدها[1].

ثم أراد الهادي أن يُنْهِيَ دَوْرَ أُمِّهِ الخيزرانِ من منبعِهِ فجمع أصحابَهُ، **وقال:** أيَّما خير أنا أم أنتم، وأمي أم أمهاتُكم؟

قالوا: بل أنت وأمك خير.

قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجالُ بخبر أُمِّهِ، فيقول: فعلت أُمُّ فلان، وصنعتْ؟

قالوا: لا نحبُّ ذلك.

قال: فما بالكم تأبون أُميِّ، فتتحدثون بحديثها؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها.

غضبت الأُمُّ على ابنها الهادي، فلم يوفقْ في خلافتِهِ، ولم يحبَّهُ الناسُ، وحاول خلعَ أخيه هارون من ولاية عهدِهِ ـ ووضع ابنه جعفر مكانهَ، فلم يعترضْه هارون، ولكنه خاب في خططه ومات مُغضبًا لأُمِّهِ.

واستعاضت الخيزرانُ بعد موته بهارون ـ الذي كان يجلُّها ويحترمُها ويوقِّرُها وقد أَحَسَّ الناسُ بمدي توقير واحترام هارون

---

(١) «نساء الخلفاء» لابن الساعي.

الرشـيد لأُمِّه الخـيزران واحـترام رغـبتـها وإرادتهـا والسعي للـفوز برضاها، فوفَّقـه الله في خلافته وأحبَّه الناس لحـبـِّه لأُمِّه، واتسعت دولتُه فملكت معظم بلاد العالم.

وكان الرشيدُ إذا رحل إلى مكانٍ لم تُطق الخيزرانُ فراقَهُ، فعندما سألت جاريتها ريطة عن ابنها هارون.

فقالت: ما فعل ابني هارون؟

فقالت ريطة: حلف ألاَّ يصلِّيَ الظهرَ إلا ببغدادَ.

قالت الخيزران: هاتوا الرحائل (الخيل والإبل) فما جلوسي هنا، وقد رحل ابني هارون، وركبت فلحقته ببغداد.

وظل هارون على حبِّه لأمِّه، ابنًا وفيًا، مطيعًا.

وظلت الخـيزرانُ أُمًّـا ناصحـةً لابنهـا هارون، حكيمـةَ الرأي، فصيحـةَ اللسانِ، راعيةً لمصلحةِ ابنها الخليـفة، وفيةً لرعيته، فـأحبَّها الناس وأجلُّوها وقـدَّروا ابنها وازدادوا حـبًّا له وجـعلوه وأُمَّه قـدوةً ومثلاً يُحتذى.





أم زرع في المدينة

عبد المنعم الهاشمي





رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت : ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت : ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

أمُّ زرع في المدينة

اختلطت السيدة عائشةُ ﵂ في المدينة بنساء الأنصار فكن يزرنها في بيتها، وكذلك هي كانت تشاركهُنَّ الأفراحَ والمناسباتِ بإذن من زوجها رسول الله ﷺ، وقد تحدثت السيدةُ عائشةُ ﵂ عن مجلسٍ شهيرٍ لهؤلاء النسوة من نساء الأنصار، وعلى رأسهنَّ أمُّ زرع، وأمُّ زرع لها مجلسٌ شهيرٌ مع عَشْرِ نساءٍ تعاهدنَ وتعاقدنَ ألاَّ يكتمن من أخبار أزواجهنَّ شيئًا.

وقد روت السيدةُ عائشة ﵂ حديث هؤلاء النسوة للرسول ﷺ، فقال لها في نهاية روايتها لمجلسِ أمِّ زرع مع صاحباتها: *«كنت لك كأبي زرع لأمِّ زرع، إلاَّ أنَّ أبا زرع طلَّق وأنا لا أُطلِّق»*[1].

وفي رواية أخرى قال الرسولُ ﷺ لعائشةَ لَمَّا سمعَ حديثَ أمِّ زرع وصاحباتها: *«كنت لك كأبي زرع في الألفةِ والرخاءِ، لا في الفرقةِ والخلاءِ»*. فردت عائشةُ ﵂ لحسنِ أدبها وطيبِ أخلاقها قائلة لزوجها الحبيب محمد ﷺ: **«بل أنت خيرٌ لي من أبي زرع لأمِّ زرع»**.

تُرى من هي أمُّ زرع؟ وما هي قصتها مع عَشْرِ النساءِ؟ ومن أبو زرع زوجُها؟ الذي أثار هذا الحوارَ الدافئَ في البيت النبويِّ الكريم والذي كان طرفيه النبيُّ محمدُ بن عبد الله ﷺ أرحمَ الأزواج بنسائه وأوفاهم وأكرمهم ﷺ، والطرف الثاني حبيبةُ النبيِّ وزوجه الصدِّيقةُ بنت الصدِّيق عائشةُ بنت أبي بكر.

وتبدأ عائشةُ رضى الله عنها قصتها العظيمةَ قائلةً:

«جلست إحدى عَشْرَةَ امرأةً فتعاهدنَ وتعاقدنَ ألاَّ يكتمنَ من أخبار أزواجهن شيئا».

---

(١) حديث أم زرع، أخرجه مسلم (٢٤٤٨).

كان عددُهُنَّ بأمِّ زرع إحـدى عشرةَ امرأةً كلٌّ منهنَّ تـتحدث عن زوجهـا ولا تكتم أخـباره، وجـاءت الآراء بين مدحٍ وذمٍّ، أو قـبول ورفضٍ، فتـسمع النساءُ والبناتُ آراءَ الـنساء المسلماتِ العـربيَّات في أزواجهنَّ فـيعرفنَ ما تحبُّ المرأةُ من زوجـها وما تكرهُ. ولنستـعرض رأي كلِّ واحدةٍ منهنَّ، حتي نصل في النهاية إلى رأي أمِّ زرع.

١ - لحم جملٍ:

قالت المرأةُ الأولى: «زوجي لحمُ جَمَلٍ غَثٌّ، على رأس جَبَل، ولا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فيُنتقل».

تتحدثُ عن نوع من الرجال يترفعُ ويتكبَّـر ويسمو بنفسه فوق مـوضعـها، فـهي تقـول على رأس جـبلٍ وعر، أي: أنَّه صـعبٌ الوصولُ إليه، على الرغم من أنَّه غثٌّ مهزولٌ، ومعنى ذلك أنَّه لا خيرَ فيه أو قليلُ الفائدة لأنَّه كلحم جملٍ لا كلحم الضأن الشهيِّ، وهو غثٌّ مهـزولٌ رديءٌ، وأنَّه صعبُ التناولِ لا يصل إليـه الإنسانُ إلاَّ بمشقةٍ شديدة.

وقدْ عدَّد العربُ أوصافَ وصـفات الأزواج في نثرهم وشعرهم فقالوا: الأزواج ثلاثةٌ: زوجُ مَهْرٍ، وزوجُ بَهْرٍ، وزوجُ دَهْرٍ.

▪ **فـامَّـا زوجُ مَـهْـر:** فـهو رجلٌ لا شـرفَ له، يُسني المهـرَ ويزيدهُ ليُرْغَبَ فيه.

▪ **وزوجُ بَهْر:** فهـو رجلٌ شريفٌ ولكنَّه قليلُ المالِ، تتـزوجهُ المرأةُ لتفخرَ به.

▪ **وزوجُ دَهْر:** فهو الرجلُ الكفـؤُ للمرأةِ، تتزوجهَ لتعـيشَ معه أبدَ الدهرِ[1].

---

(١) «لسان العرب» مادة: بهر.

وتحدث العربُ عن الرجال والنساءِ فقالوا: النساءُ ثلاثٌ، والرجالُ ثلاثةٌ: فالنساء منهنَّ:

١ ـ ليِّنةٌ هيِّنةٌ عفيفةٌ مسلمةٌ، تُعين أهلهاَ على العيشِ، ولا تُعين العيشَ على أهلها.

٢ ـ وأخرى وعاءٌ للولد.

٣ ـ وأخرى غُلٌّ قملٌ، يَضعهُ الله في عنقِ مَنْ يشاءُ.

والرجال ثلاثة:

الأول ـ ليِّنٌ عفيفٌ مسلمٌ، يصدر الأمورَ مصادرها، ويوردها مواردها.

والثاني ـ ينتهي إلى رأي ذي اللبِّ والمقدرةِ ـ أي: الحكيمُ صاحبُ الرأي السديد ـ فيأخذُ بقوله، وينتهي إلى أمرِه.

والثالث ـ حائرٌ بَائرٌ، لا يأتمر لرشد، ولا يطيعُ المرشدَ[1].

من حكاية الزوج الأولى ـ نستشف أهميةَ اختيار الزوج لزوجها بتزكية الأهلِ لأخلاقه ونسبه ودينه، ومثل ذلك ما رواه الأصمعي عن رجليْن خطبا ابنتهُ، وكانَ أحدُهما مقلا من المال فقيرًا، ولكنَّه عاقلٌ، والآخر كثير المال غَنيٌّ لكنَّه أحمقُ، فشاور أبوها رجلاً يقال له أبو زيد، **فقال له:** «لا تزوِّجْ إلاَّ عاقلاً دينًا، فإن لم يُكرمْها لا يظلمها»، ثم شاور رجلاً يقال له أبو العلاء، **فقال له:** «زوِّجها المكثرَ من المال ـ أي: غني ـ فإنَّ مالهُ لها، وحمقه على نفسه»، فزوَّج ابنته لصاحب المال فلقى منه ما يكره في نفسه وفي ابنته، **فأنشد يقول:**

أَلهْفي إذ عَصَيْتُ أبا يزيدِ ••• ولهْفي إذا أطعتُ أبا العلاءِ

وكانت هفوةً مِنْ غَيْرِ ريحٍ ••• وكانت زلْقَةً من غير ماءِ[2]

---

(١) «الأمالي» للقالي، (٢/ ١٥٦).

(٢) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، (٦/ ١٠٠ – ١٠١).

٢ ـ لا أبثُّ خَبَرهُ:

وتحدثت المرأةُ الثانيةُ ـ فقالت في مـجلسِ أُمِّ زرع عن زوجها، وهي: عمـرةُ بنت عمرو، : «زَوْجي لا أُبثُّ خَبَـرهُ، إنِّي أخاف إلاَّ أذَرَهُ، إنْ أذْكُرهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ».

تتحدث عمرةَ وكأنَّها تقول: إن خبرَ زوجي طويل فإن شرعتُ في تفصيله لا أقـدر على إتمامه لكثرته، وكثرة ما فـيه من أحداث تُبدي الكثير من عيوبه، فتقول إنْ أذكـرَ أذكرْ عجره، والعجر الذي تقصدهُ في زوجها كـثرة غضبـه وعصبيَّـته لدرجة أنَّه دائمًا مـا يكون منتفخَ العروقِ التي تحت جلده، والبَـجَرُ هو انتفـاخُ بطنه، وهو شيء تذمّه المرأةُ في زوجها، فيه لاَ تريد زوجًا أبجرَ منتفخ البطن.

وقـد خافت عـمرةُ التـحدثَ عـن زوجهـا بما فيـه من عيـوبِ الخصال، لعـدَّة أسبابٍ فهي إنْ أخـبرت بشيء من عيوبه ونـقائصه، أفضى ذلك إلى ذكرِ شيء آخر أقبحُ منهُ، وقد عاهدت صاحباتها ألاَّ تكتمَ شيـئًا من صفتـه عنهنَّ، وبذلك تكون قد كرهت ما تـعاقدت عليه مـعهنَّ، وذهبت إلى ستر عـيوب زوجها لكثـرتها، ولم تر أنَ تذكرَ بعضًا دونَ بعض وأنها إنْ ذكرت شيئًا من عيوبه تسبَّبَ في ذكر شيء آخر، فرأت الإمساك عن هذا أفضل وأولى.

٣ ـ إن أَنْطِقْ أُطَلَّقْ:

أمَّا الثـالثةُ ـ وهي «حُسْنى بنت نعب» فلم تكتمْ شـيئًـا كمـا تعاهدت مع صاحـباتها بل أوجزت أخـبارَه في جُمَلٍ مختـصرة جاء فيها: «زوجي العَشَنَّقُ، إنْ أَنْطقْ أُطلَّقْ، وإنْ أَسْكُتْ أُعلَّقْ»

جاء في هذه العـبارة أنَّ العشنَّق: هو الطـويل، وقيل: الطويلُ العنقِ، وتقـصد حـسنى هنا: أنَّ زوجهـا العشنقَ الطويلَ النحـيفَ،

الذي ليس أمرُه إلى امـرأته وأمرُها إليـهِ، فهو يحكم فـيهـا بما يشاءُ وهي تخافُهُ لأنَّه صقرٌ مقدامٌ جريءٌ.

والحقَّ إنَّ دوامَ الحيـاة الزوجية رهن بدوام المحـبَّةِ بين الزوجين، فمع أيام الزواج يـنمو إحسـاسٌ بالمودة والرحمـةِ بين الزوجين، وقد عبَّر زوجٌ عن الوسيلةِ لتي تستديم بها زوجه مودته فخاطبها قائلاً:

خذي العفو منِّي تستديمي مودَّتي	ولا تنطقي في ثورتي حين أغـضبُ
ولا تُكثري الشكوى فتذهبَ بالهوى	فـيـــأباك قلبي والقلوبُ تَقَلَّبُ

وكما تحـدثت حسنى عن عيوب زوجها فـإنَّ أُمًّا جاءت لتنصح ابنتها فقالت: «اختبري زوجك قبل الإقدام عليه، فانزعي رمحه، فإن سكت فاقلعي سنانَه - سهام الرمح - فإن سكت فاقطعي اللحم على ترسه، فـإن سكت فاكسري العظامَ بسـيفـه، فإن سكت فـاجعلي الإكافَ على ظهرِه وامتطيه، فإنَّما هو دابتُك».

٤ - زوجي كليلِ تهامة:

هذه الزوجـةُ هـي أول نسـاء مـجلس أمُ زرع الـلائي مـدحنَ أزواجهنَّ، وهي «مَهْدد بنت أبي مرزمة»، **قالت مهدد:** «زوجي كَلَيْلِ تهامةَ، لا حَرَّ ولا قرَّ، ولا مخافَةَ ولا سآمَةَ»

لقد مدحت «مهدد بنت أبي مرزمة» زوجـهَا مدحًا بليغًا قصدت به أنَّ زوجها ليـس فيه أذيً، بل هو راحةٌ ولذاذةُ عيش كلـيلِ تهامة لذيذٌ معتدلٌ ليس فيه حـرٌّ ولا بردٌ مُفْرطٌ، ولا تخاف منه غائلةَ لكرم أخلاقه، ولا يَسأمُ منها ولا يملُّ صحبتهَا.

وهَذا الحبٌّ الذي امْلَتهُ علينا «مهدد» عن زوجـهـا له أعداءٌ وأشدُّ أعدائه الغـيرةُ واشتدادُ الـغيرة بالمرأة تذهلُها وتـفقدها صوابهـا، فلا يستقيم قـولُها ويهتز تفكيرُها، وفي كتاب «لسـان العرب» مادة «نفر» أنَّ أعْرابيةً مُـحبَّةً لزوجِهـا، تزوَّج عليها، فمـرت يومًا برجلٍ يرعى

الإبل في رأس جبلٍ فأرادت أن **تقولَ له:** أيها الرجَّل في رأس الجبل عسى رأيت بعيرًا يجر حبلاً ـ جريرًا ـ.

فقالت له: أيُّها الجبل في رأس الرَّجل عسى رأيت جريرً ـ حبلاً ـ يجر بعـيرًا؟ **فقال الرجلُ:** أغيرى أنت أم غـاضبةٌ؟ **فقالت له:** ما أنا بالغـيرى ولا الغـضبى، لقـد فضح ذَهـولُها غـيرتهـا المَكتومـةُ في جوانحها، فظهرت على لسانها وحديثها مع النَّاس، مما يجعل الغيرةَ وبالاً على صاحبتها.

ولعل أطرفَ مـا نحكيه عن الـغيـرة في هذا الجانب مـا حكاه الأصمعي لهارون الرشيد[1] عن رجل تزوَّج أربعَ نساء وطلَّق خمسًا في يوم واحد، فقـد دبت الغيرةُ في أوصال أزواجـه الضرائرِ الأربع فكنَّ في خلافٍ دائم، وفي يوم دخل علـيهنَّ فَوَجدَهُنَّ مـتنازعات، وقد نَفدَ صبرُه عليهنَّ وضاقَ بهنَّ ذَرعًا، **فقال:** إلى متى هذا النزاعُ؟ ونظر إلى إحـداهن **وقال:** مـا إخال هذا الأمـر إلاَّ من قـبَلكِ أنتِ، اذهبي فأنت طالق. **فقالت الثانية:** عجَّلت عليـها الفراقَ، **فقال لها:** وأنت طالقٌ أيضًا، **فقالت الثالثة:** ضاق صدرُكَ عن أن تؤدِّبَ نساءَك إلا بلاطلاق؟ **فقال لها:** وأنت طالقٌ أيضًا!! **فقالت الرابعة:** قَبَّحَ الله صنعَك، **فقال لها:** وأنت طالق أيضًا. وكان ذلـك بمسمع جارة له، **فقالت:** أبيت إلاَّ طلاقَ نسائك في ساعة واحدة. **فقال لها:** وأنت أيضًا أيتها المؤنبة المتكلفةُ طالقٌ إنَ أجـازَ زوجُك. فأجابه زوجُها من داخل بيته **قائلاً:** هيه، قد اجـزتُ. قد اجزتُ. وإذا كان حـديث «مهدد بنت مرزمة» قد جرَّنا إلى الغيرة في النساء، فإنَّ الرجال يغيرون على أزواجهم، فقد تدفع غيرة الرجل إلى أفعالٍ كثيرة.

---

(١) انظر: «العقد الفريد» (٦/١١٨).

فهذه حكاية امرأة تقدمت إلى القاضي في مدينة الرَّي عام ٢٨٦ هـ فادَّعى وكيلُها أمام قاضي الرَّي «موسى بن إسحاق» أنَّ لموكلته على زوجها خمسمئة دينار - مهرها - فأنكر الزوجُ، **فقال القاضي لوكيل الزوجة:** شهودُكَ، **قال:** أحضرتُهم، فطلب من أحد الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي، **فقال الزوج:** تفعلون ماذا؟ - **قال الوكيل:** ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة لتصحَّ عندهم معرفتُها، **فقال الزوج:** إنِّي أُشهد القاضي أنَّ لها عليَّ هذا المهر الذي تدَّعيه ولا تسفرُ عن وجهها، فردت المرأة وأخبرت بما كان من زوجها - **فقالت:** فإنِّي أشهدُ القاضي بأنِّي وهبت له هذا المهر وأبرأتُ ذمَّتَه في الدنيا والآخرة، **فقال القاضي:** يكتب هذا في مكارم الأخلاق. وحبٌّ الرجلِ لزوجه يدفعه للغيرة، غير أن وفاءَ الزوجِ المحبة يكونُ في المقابلَ بلسمًا يضمد الجراحَ - جراح عدمَ الثقة، ويزرع الثقةَ في نفوسِ الأزواج وأزواجهم.

٥ - ..ولا يسأل عمَّا عهد:

«كبشةُ» هذه المرأة الخامسة في مجلس أم زرع كانت من اليمن، وكانت من النساء الموادح لأزواجهن في هذا المجلس، فقد أحبت في زوجها كرمه وغيرته على أهله وحبَّه لبيته وأسرته، **فقالت:** «زوجي إنْ دَخلَ فَهِدَ، وإن خرج أسِدَ، وَلا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ».

هذا مدحٌ بليغ لزوجٍ مخلصٍ كريم هادئ وقور في بيته هادر جسور، إذا خرج بين أقرانه، إذا دخل بيته لزم أهله يؤدِّي لهُنَّ حقوقهنَّ.

وهنا تتحدث كبشةَ عن الصفات الخلقية المرغوبة في الزوج، ولعل من أهم هذه الصفات الشبابَ، إذ أنَّ الرجل يرغب في المرأة الشابة الفتيَّة، وكذلك ترغبُ المرأةُ في الشاب القويِّ، مما يساعد على قيام الغريزة بأكمل وظائفها في الاستخلاف واستمرار التناسل والحياة

بكل صورها. وهنا تعبِّر المرأةُ عن نفسها، وعن رغبتها في العيش في كنف زوج قوي الجسم والشخصية.

وجاء في أخبار العرب أنَّ «الحارث بن سليل» خطب إلى «علقمة بن خصنصة» ابنته «الزبَّاء» وكان الحارث شيخًا عجوزًا، والزَّباء شابة فتيةٌ جميلةٌ، فنادى علقمةُ زوجَه **وقال لها:** إنَّ الحارثَ بن سليل، سيد قومه حسبًا ومنصبًا ونسبًا، قد خطب ابنتنا الزبَّاء فلاينصرفن إلاَّ بحاجته، فأريدي ابنتك على نفسها ـ أي: احمليها على قبوله زوجًا، فدخلت الأم على ابنتها الزبَّاء **وقالت لها:** أي الرجال أحبُّ إليك، الكهل الجحجاح ـ السيد الكريم ـ الواصل المنَّاح ـ الكثير العطاء، أم الفتى الوضَّاح الذهول الطمَّاح. **فقالت الزبَّاء:** إنَّ الفتاة تحبُّ الفتى ـ أي: الشاب القوى. **فقالت الأم:** يا بنيَّة، إنَّ الشباب شديدُ الحجاب، كثيرُ العتاب. **قالت الزبَّاء:** يا أماه! أخشى من الشيخ أن يُدنِّسَ ثيابي، ويُبلي شبابي ويُشمت بي أترابي. فلم تزل بها أمُّها حتى وافقت، فتزوجها الحارث بن سليل، ثم رحل إلى قومه، وإذا به ذات يوم جالسٌ وهي جانبه، إذ أقبل شبابٌ من بني أسد يتصارعون، فتنهدت الزبَّاء وبكت، **فقال الحارث:** ما يبكيك، **فقالت:** مالي وللشيوخ الناهفين كالفرُوخ ـ أي: ضعافٌ كالفروخ الصغيرة، **فقال الحارث:** أما وأبيك، لربَّ غارةٍ شهدتها، وسبيَّةٍ أردتُها، فألحقي بأهلك لا حاجة لي فيك.

ونحن نرى من هذه القصة أنَّ المرأة تريد الرجل القوي الشاب ولو ارتدت قوَّته عليها ـ ونعود إلي كبشة لنرى أنها أحبت زوجها لكرمه وقوته وشبابه، قوته مع أقرانه وإخوانه وأعدائه، فهو قويُّ الشخصيَّةِ معَ الصديقِ والعدوِ، وهو شاب يؤدي لأهله حقهم في داره فهو: «إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد، ولا يُسأل عمَّا عَهد».

٦ - إذا أكلَ لفَّ، وإذا شَربَ اشتفَّ:

المرأة السادسةُ هي «هند» وقد اسرفت هند في ذمٍّ زوجها **فقالت:** «زوجي إذا أكلَ لَفَّ، وإن شـربَ اشْـتَفَّ، وإن اضْطَجَعَ التفَّ، ولا يُولج الكَفَّ لَيعْلَمَ البثَّ».

تتحدث هند عن صفات قبيحة يتـصفُ بها زوجُها، فقد وصفتهُ بالشـدةِ في الأكلِ والنهمِ والبخـلِ، والمرأة تذمُّ الرجلَ بكثرةِ الطعـام والشراهةِ في تناوله، ويمكن أن تمدحَ الرجلَ بقلةِ النوم. فمن وصفها الأول قالت: زوجي إذا أكـلَ لفَّ ـ أي: أكلَ كثيـرًا، وإذا اضطجع التفَّ، ولا يولجَ الكفَّ ليعلمَ البثَّ ـ فـهذا ذمٌّ للزوج، فإن اضطجع ورقد التف في ثيابه من كل ناحية.

٧ - زوجي عيـايـاء:

قالت السابعة ـ وهي «حسنى بنت علقمـة»: زوجي عَيـاياءُ، طَبَاقاءُ، كل داء لهُ دواءُ، شَجَّك، أو فَلَّك، أو جمعَ كُلاً لك».

والرجل العَيـاياء هو الضعيفَ، أمـا وصفهـا شجَّك أو فلَّكَ أو جمع كُـلاً لك ـ فهي تقـصد أنه سيء الخلق يـضربُها بحـيث يشجَّ رأسها، أو يفلُّ: بمعنى يكسـرُ العظامَ من الضرب، فغضبه مـعها إمَّا جرحٌ في الرأس أو كسر في العظام أو كلاهما معًا.

٨ - المس مسُّ أرنب:

قالت المرأةُ الثامنة ـ وهي «هند بنت أومل بن عـيـد»: «زَوْجي الرِّيحُ ريحُ زَرْنَب، والمسُّ مَسُّ أرنَب، أغْلبهُ والناس يَغلبُ»[1].

تمدح هند زوجها مدحًا بليغًا، فتستـعين بالبيئة وجمالها، فيتجه وصفُها إلى نباتِ طيِّبِ الريحِ، أو شجـرِ طيِّبِ الريح، وقد استعمله العطارون ـ ويخلط بالطيب لرائحته العطرة أي نبات الزرنب.

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٢٦٤).

وتصف هند زوجها بلين الجانب، وحُسن الخلق، والعشرة معه فله مسُّ الأرنب في نعومته وليونته وملمس وَبَره، أما تشبيهها إيَّاه بريح الزرنب فقد قصدت إنه: طيِّبٌ ثناؤهُ في النَاسِ، وثناءُ الناس عليه، وطيبٌ جسدُه، وعطرُ ثيابِه، أرادت بذلك: لينَ عريكتهِ وحسنَ خُلقهِ.

٩ ـ رفيع العماد:

وكما مدحت «هند بنت أومل بن عيد» ثامنةُ النساء في مجلس أمِّ زرع بحديثها الطيب. ريح زوجها الطيِّب: كريح الزرنب، ولين جانبه كمسِّ الأرنبِ، وتواضعه عندما يغلب، وحزمه وشجاعته عندما تقول والناس يغلب ـ كأنها تقول للرجل بل ولكل رجل: ـ كُنْ ريحَ زرنب عند زوجك، وكن كمسِّ الأرنب في تراحمك ولين جانبك، وكن مغلوبًا لزوجك تواضعًا ورحمة، والناس تغلب دليلاً على نصرتك الحقِّ ودحضكَ للباطلِ ومساعدة المظلوم.

جاءت التاسعةُ لتمدحَ زوجها في مجلسَ أم زرع **وتقول:** «زَوْجي رفيعُ العماد طويلُ النجاد عظيمُ الرَّماد قريبُ البيتِ من النادي، لا يشبعُ ليلَهُ يُضاف، ولا ينامُ ليلهُ يخافُ».

ومقصدها من رفيع العماد أنها تصف زوجها مادحة بأنه رجلُ عظيم الشرفِ والمكانة، فوصفته بالشرف وثناء الذكر، وأن بيته في الحسبِ والنسبِ رفيع العمادِ ليراه الضيوفُ، وأصحابُ الحوائج فيقصدوه، وهكذا تكون بيوتَ أهل الجود والكرم، وهو طويلُ النجاد أي: طويلُ حمائلِ السيف، فالطويلُ يحتاجُ إلى طول مماثل لسيف، والعرب تمدَح بذلك، وقولها عظيم الرماد دليلٌ على كرمه وكثرة أضيافه فيكثر وقودُه، ورمادُه بكثرة إعداده لطعامِ ضيوفه، وقيل لأنَ نارَه لاَ تُطفأ بالليل ليهتديَ بها الضيفانُ، والرواد يعظمون النيران في ظلام الليلِ ويوقدونها على التلال ومشارف الأرض، ويرفعون أقباس النار على الأيدي لتهتديَ بها الضيفان.

وقـولهـا قـريبُ البـيتِ من النادي، لأنَّ النادي منتـدى القـومِ ومجلسهم، وقد وصفت زوجها بالكرم والسؤدد، والضيوف يقصدون النادي لأنَّ أصحابَ النادي يأخذونَ ما يحتاجونَ إليه في مجلسِهم[1].

وقد حصرت صاحبتنا هنا مدحهَا في جانبَين أساسيَّين هما:

أولاً - المكانة الرفيعة لزوجها والفخر به.

ثانيًا - الكرم وحسن الضيافة وكيفية معاملة الضيف.

وخدمة الضيف عند العرب شرفٌ لا يأباه أحدٌ منهم مهما كانت مكانته في المجـتمع، **فـقـالوا**: أربعٌ لا يأنف مَنهنَّ أحـدٌ، ولا ينبغي لشريف أن يأنفَ منهنَّ وإن كان أميرًا:

١ - قيامُهُ من مجلسه لأبيه.

٢ - وخدمتهُ للعالمِ يتعلَّمُ منهُ.

٣ - والسؤالُ عمَّا لا يعلمُ ممن هو أعلمُ منهُ.

٤ - وخدمةُ الضيف بنفسه إكرامًا له[2].

وقـد نُسبَ لعبَـد المَلك بن مـروان **قـولهُ**: أربعٌ لا يُستـحى من خدمتهم: السلطانُ، والوالدُ، والضيفُ، والدابةُ»[3].

وكان خـيرُ مدحٍ يمدحُ به الزوج أنَّه كـريمُ العطاءِ سخيٌّ، يكرمُ الضـيفَ، ويُؤثره على نفـسهِ، هذه مـأثرة حفظـتهـا الزوج الوفيَّـة لزوجِها، ومدحته بها.

١٠ - زوجي مالكٌ:

العاشرةُ هي «كبـشةُ بنت الأرقم» وكانت من النساء اللائي أثنينَ على أزواجهنَّ **فقالت**: زَوْجي مالكَ وما مالكَ، مالكٌ خيرٌ من ذلكِ،

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم، الحديث (١٥/ ٢١٦).

(٢) «الإمتاع والمؤانسة» (٣/ ٤).   (٣) «المتعطف» (ص٢١٣).

لهُ إبلٌ كثيـرات المباركِ، قليلاتَ المسارحِ، إذا سَـمعْنَ صَوْتَ المزهْرَ، أيقنَّ أنَّهُنَّ هوالكُ».

وفي حديثها أنَّ لـزوجها إبلاً كثيرةً بفنائه، لا يتـركُها تسرحُ إلاَّ قليلاً ومعظم أوقاتها باركـةٌ بفنائه، فإذا نزل به الضيوفُ كانت الإبل جاهزةً قريبةً فـيقدم لهم من ألبانها ولحومـها، والمزهرُ هو موقد النار الذي يُعَـدُّ عليـه الطعامُ للضـيـوف، وقيل إنـه العودُ الذي يُضـربُ فيحدثُ صوتًا موسيقيًـا. وقد أرادت كبشةُ أن تقولَ: إنَّ زوجَها عوَّدَ إبله إذا نزل الضـيفـانُ نحر لهم مـنها، وآتاهم بالعـيدان والمعـازف والشـمرات، فـإذا سمـعت الإبلُ صـوتَ المزهر علمنَ أنَّه قد جـاءه ضيوفٌ وأنهنَّ منحوراتٌ هوالكُ»[1].

ومن شيم العرب وكرمهم مـا رُوي عن أنَّ رجلاً كان صائمًا في عـام جـدبٍ وقـحـطٍ، فـابتلى برجل عنـد فطره، وقـد أتى بقرصيْن مِنَ الخبز فألقى إليه أحـدهما ثم قال: ما هذا بمُشبعه ولا بمُشبعي، ولأن يشبع واحدٌ خـير من أن يجوع الاثنان، فألقى إليه بالرغيف الآخـر، فلما أوى إلى فـراشه أتاه آت في المنام فـقال: سَلْ؛ فقال: أسأل المغفرةَ، قـال: قد فُعل ذلك بك؟ وقال: فإني أسأل أن يُغاث الناس»[2].

وقد بينت كبشة في حديثها هذا بأنَّ الرجل يحبُ أنْ يكونَ كريمًا حتى تُقْبِلَ عليه النساءُ إذا خطبهنَّ.

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/٢١٦).
(٢) «عيون الأخبار» كتاب «النساء» (ص١٨).

١١ ـ زوجي أبو زرع:

قالت الحـادية عشـرَ «أم زرع» وهي سيـدةُ المجلس: زوجي أبو زرع ومـا أبو زرع أنـاس من حُليٍّ أذني ـ أي مـلأ أذنـي بالذهب، فيتدلَّى مؤنسًا لها لكثـرة الذهب، ثم قالت: ملأ من شحمٍ عَضُدي، وبحبحني فَبَححت إلى نفسي». أي أنه احترمني وعظمني، فعظمت عند نفسي، مما أفرحني وأسعدني دائمًا. . وقالت: ووجدني في أهل غُنَيمةٍ بشقٍّ فجعلني في أهل صهيل وأطيط».

وهنا تصف حـالها حين جـاءها خاطبًـا فقـد كانت في أسـرة متواضـعة فقيرة، فـهي في أهل غُنَيمْة ـ تصغـير للغنم، وليس في أهل خيلٍ أغنياء، والأطيط هنا صوت الإبل والصهيلُ صوتُ الخيلِ إشارة إليهما وإلى ثراء أبي زرع وغناه. لقد كانت في شظف العيش وأصبـحت في بحبوحـته، ووفرةِ الحـياة والعـيش. فعند أبي زرع أشربُ حتى أشبعُ وأرفعُ رَأسي عنَ الإناءِ استـغناءً وشبعًا. وتحدثت عن أم أبي زرع فـقالت عن حـماتهـا أكرمـها رداح أي أحـمالهـا وحاجيتهـا التي تصنعها عظيمة ممتلئة بالخير والطعام الكثـير، وبيتها فسيح كثـير الخير والنعم. **وعن ابن زوجها تقول:** إنه خفيفُ الظلِّ، قليلُ اللحمِ، وهو شجاعٌ معتز بنفسه كما قالت عنه: ابنُ أبي زرع، مضجعهُ كمسلَ شطبه، ويشبعه ذراعَ الجفرة. **وعن ابنة أبي زرع تقول:** بنت أبي زرع ومـا بنت أبـي زرع طوع أبيـهـا وطوع أمـهـا. ملء كسائها، وغيظ جارتها.

وعن جارية أبي زرع قالت: فهي لا تخرُج سـرًا ولا تظهره، وتهتمُ بشؤون البيت نظافةً وتطهـيرًا، ولا تخون في الطعام فتخفـيه وتخبؤه هنا وهناك.

وبعد هذا الوصف تفـاجئنا أمُّ زرع بأنَّ زوجهـا خرج في وقت ربيع وخـصب ولقى امرأة صـغيـرة السن معـها طفلين فـتزوجـها ـ فتتـزوج هي من رجل كريم خلوق أعطاها من المال الكثـير، وأفاض عليها بما عنده من نعم، حتى عجزت عن حصرها».

ثم تقول في النهاية: فلو جمعت كل شيء أعطاني فما بلغ أصغر آنية أبي زرع».

لقـد احـتـفظت بالودِّ لزوجـهـا الأول على الرغم مما حـدث، وطلاقها منه وزواجها من رجل آخر كان كريمًا سخيًا خلوقًا أيضًا.

ولما انتـهت عـائشـة من وصـف المجلس، قـال النبي ﷺ: ***«كنت لك كأبي زرع لأمّ زرع، إلاَّ أنَّ أبا زرع طلَّق وأنا لا أطلَّق»***[1].

وفي روايةَ ثانية إنه قال ﷺ: ***«كنت لك كأبي زرع في الألفة والرخاء، لا في الفرقة والخلاء»***.

فكان ﷺ قـدوةً للأزواجِ في المحبَّـةِ والموافقـةِ والمواصلة. وتجيب عائشـة رضي الله عنها قائلة: **«يا رسول الله بل أنت خيـرٌ لي من أبي زرع لأمّ زرع»**.

وقـد رأينا أن حديث هؤلاءِ الـنسوة له فـوائدُ عـديدةٌ أهمُّـهـا: ضرورة المرحِ والمداعبة بين الرجلِ وأهله، ذكـرُ المرأةِ إحسانَ زوجها، وحضٌ النساء على الوفاء لأزواجهنَّ، وفيه إخبار للرجل بصورة حاله مع أهله، وتذكيره بذلك.

